حديث القرآن الكريم
عن العذاب المهين
دراسة تفسيرية تحليلية

✍ إعداد الدكتور

ربيع يوسف شحاته الجهمي

الأستاذ المساعد في التفسير وعلوم القرآن الكريم

بجامعة الأزهر، المشارك بجامعة تبوك بالسعودية

البريد الإلكتروني: rabie.Youssef@azhar.edu.eg

حديث القرآن الكريم عن العذاب المهين دراسة تفسيرية تحليلية

ربيع يوسف شحاته الجهمي
قسم التفسير وعلوم القرآن الكريم – بجامعة الأزهر، المشارك بجامعة تبوك بالسعودية
البريد الإلكتروني: rabie.Youssef@azhar.edu.eg

الملخص :

اقتضت حكمة الله تعالى وعدله أن يحاسب الناس يوم القيامة؛ فيثيب الطائعين بفضله، ويعاقب العاصين بعدله. ومن فضله سبحانه وتعالى أن ذكر في القرآن الكريم أنواع الثواب، وأسبابَه، وأهلَه، وأنواع العقاب، وأسبابَه، وأهلَه؛ ترغيبا لأهل الطاعات، وترهيبا لأهل المعاصي؛ لئلا يكون للناس على الله تعالى حجة. ويتناول هذا البحث **(حديث القرآن الكريم عن العذاب المهين دراسة تفسيرية تحليلية)** نوعا من أنواع عقاب الله تعالى لأهل المعاصي، وهو العذاب المهين (المُذِلُّ المُخْزِي) وهو عقاب نفسي، خصَّ الله تعالى به فريقا من أهل الكفر والنفاق. وقد بلغت مواضع وروده في القرآن الكريم ثلاثة عشر موضعا؛ يتناولها هذا البحث بالدراسة التفسيرية التحليلية التي تُبين أهله، وتُبرز أسبابه، وتُجَلِّي ما تيسر من أسرار التعبير القرآني، التي تحمل فيضا من الهدايات والمعاني. وقد تبين من خلال البحث: أن العذاب المهين عقاب فوق أنواع العذاب الأخرى، كالأليم، والعظيم، والشديد، توعد الله تعالى به فريقا من أهل الكفر والشرك والنفاق خاصة؛ ليجمع عليهم مع عذاب الجسد عذاب النفس؛ جزاء وفاقا لأعمالهم في الدنيا. وأنه لا يكون –بفضل الله تعالى– للعصاة من المؤمنين، كأهل الكبائر، لأنه عز وجل يتفضل على العصاة منهم فلا يذلهم ولا يفضحهم ولا يخزيهم، وإنما يُمحصهم، ثم يدخلهم الجنة بفضله وكرمه ومَنِّه. وأن أسباب العذاب المهين تكمن إجمالا في: (الاستهانة، أو الاستكبار، أو الاستهزاء، أو الإعراض، أو الصد، أو المحاربة) سواء تعلق ذلك بالله عز وجل، أو بكتابه الكريم، أو برسله عليهم الصلاة والسلام، أو بالدين كله، والعياذ بالله تعالى.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم – العذاب – المهين – تفسيرية تحليلية .

(Hadith of the Holy Qur'an on degrading torture)

Rabea Yousef Shehata Al-Jahmi
Department of Interpretation and Sciences of the Noble Qur'an - Al-Azhar University, Associate of Tabuk University, Saudi Arabia
E-mail: rabie.Youssef@azhar.edu.eg

Abstract :

The wisdom and justice of Allah Almighty required that people be held accountable for their deeds on the Day of Resurrection; He rewards the obedient, and punishes the sinners fairly. As a form of Almighty's grace, He mentioned in the Holy Qur'an the types of reward, its causes, and its receivers, as well as the types of punishment, its causes, and its receivers; In order to honor the Obedient, and to intimidate Sinners; Lest Mankind should have no plea against Allah. This research tackles the problem of (Humiliating Punishment in the Light of the Noble Qur'an; essence, receivers, and Reasons); just one form of punishment inflicted by Allah Almighty upon sinners, which is humiliating punishment (humiliating and shameful). It is a psychological punishment, which Allah Almighty assigned to disbelievers and hypocrites. It is mentioned thirteen times in the Noble Qur'an; This research discusses and analyses this type of sinners, highlighting the causes of this punishment, and reveals the secrets of the Qur'anic expression, which conveys meanings. It has been found: that humiliating punishment is some kind of punishment above other types of punishments, such as the painful, the great, and the severe. Allah Almighty has assigned it to the disbelievers and the hypocrite; To inflict upon them both the torment of the body and the torment of the soul. Thanks to Allah the Almighty, this kind of punishment is not meant for the disobedient like the people of major sins, because Allah the Almighty grants them is favor, so He does not humiliate them, does not expose them, and does not disgrace them, but rather to test their faith, and then enters them Paradise thanks to His generosity and grace. This paper concludes that the causes of humiliating punishment are, in general, belittling, degrading, doing harm, or mocking the religion, the Great Qur'an, or the holy Prophet, may Allah's prayers and peace be upon him.

Keywords : The Noble Qur'an - torment - insulting - explanatory and analytical .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يخلق الجن والإنس، وأن يكلفهم بعبادته، وأن يرسل الرسل مبشرين ومنذرين، وأن ينزل معهم الكتاب ليقوم الناس بالقسط؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

ومن حكمته تعالى وعدله أن خلق الجنة دارا للنعيم، وجعلها درجات، وخلق النار دارا للعقاب، وجعلها دركات، وأن جعل يوما للحساب، يحاسب فيه عباده، فيثيب الطائعين بفضله، ويعاقب العاصين بعدله؛ دون إيجاب شيء عليه سبحانه.

ولما كان الخلق متفاوتين في درجات إيمانهم، وفي دركات كفرهم، وفي منازل طاعتهم، وفي مهاوي عصيانهم؛ جعل الله تعالى نعيم الجنة أنواعا، فمنه للنفس ومنه للجسد، ومنه لهما معا، وجعل عذاب النار أصنافا، فمنه للنفس ومنه للجسد، ومنه لهما معا؛ لينال كل عامل جزاءه بما قدمت يداه؛ قال الله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨].

ومن فضل الله تعالى على عباده أن بيَّن في كتابه الكريم –إجمالا– أنواع الثواب، وأسبابَه، وأهلَه، وأنواع العقاب، وأسبابَه، وأهلَه؛ ترغيبا لأهل الطاعات، وترهيبا لأهل المعاصي، وجاء ذلك منثورا في القرآن الكريم.

ويأتي هذا البحث ليتناول بالدراسة التفسيرية التحليلية حديث القرآن عن نوع من أنواع عقاب الله تعالى لأهل المعاصي، وهو العذاب المهين، ليبين أهلَه، ويُبرز أسبابه، ويُجَلِّي ما تيسر من أسرار التعبير في أساليبه، التي تحمل فيضا من الهدايات وسيلا من المعاني. وقد جعلته بعنوان: **(حديث القرآن الكريم عن العذاب المهين دراسة تفسيرية تحليلية)**.

وقد بلغت مواضع وروده في القرآن الكريم ثلاثة عشر موضعا.

**** أسباب اختيار الموضوع:**

كان من أهم أسباب اختيار هذا الموضوع:

١- توفيق الله تعالى ومشيئته العلية، فهو الذي شرح صدري له، وحببه إلى نفسي، وذلل لي الصعاب في معالجته.

٢- الرغبة في خدمة كتاب الله تعالى.

٣- أثناء رحلتي في تدبر القرآن الكريم؛ قياما بأمر الله تعالى، شدَّ انتباهي ولفت نظري حديثُ القرآن الكريم عن صنف من أصناف العذاب النفسي، وهو العذاب المهين؛ إذ وجدته مخصوصا بقوم من أشد الناس عذابا في جهنم، والعياذ بالله تعالى، وهم الذين تجاوزا مجرد الكفر أو الشرك أو النفاق إلى جرائم أخرى خاصة؛ اقترفوها؛ فجمع الله عليهم لأجلها عذاب الجسد وعذاب النفس!.

٤- أنني لم أجد بعد -بحث دقيق- أي دراسة تفسيرية تحليلية تناولت ذلك الموضوع؛ خاصة أن كلام المفسرين فيه يعد إشارات مجملة، ناسبت مقاماتها، ومواضعها من تلك التفاسير المطولة أو المختصرة؛ فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

فتوكلت على الله مستعينا به سبحانه وعقدت النية على أن أكتب فيه دراسة تفسيرية تحليلية تجمع مواضعه، وتبين معناه، وأهله، وأسبابه، في كل موضع على حدة، مرتبا ذلك على حسب ورود المواضع في كتاب الله تعالى؛ معتمدا على سياق الآيات ومناسباتها، ودلالات ألفاظها ولطائف معانيها، مبينا قدر الإمكان دقائق التعبير القرآني الكريم، وجماليات أساليبه، التي تعين على الفهم والتدبر، وتدل على بلاغة القرآن وروعة بيانه.

**** الدراسات السابقة:**

لم أجد -بعد بحث دقيق- أي دراسة تفسيرية تناولت موضوع هذا البحث.

**** خطة البحث:** قسمت هذا البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة:

المبحث الأول: العذاب المهين، تعريف وبيان.

المبحث الثاني: مواضع وصف العذاب بالمهين في القرآن الكريم.

وأما الخاتمة: ففيها أهم النتائج والتوصيات.

** **منهج البحث:** سرت في هذا البحث على ثلاثة مناهج:

أولها: المنهج الاستقرائي: حيث جمعت المواضع القرآنية المتصلة بموضوع البحث، ورتبتها على حسب ورودها في كتاب الله عز وجل.

وثانيها: المنهج التحليلي: حيث حللت الآيات الكريمة المتعلقة بكل موضع بما يفي بالغرض، ويحقق البيان.

وثالثها: المنهج الاستنباطي: حيث استنبطت –مهتديا بأقوال أئمة التفسير والبيان– من الآيات الكريمة في كل موضع ما يبين أهل العذاب المهين فيه، وأسبابه؛ ودقائق التعبير وجمالياته.

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يعفو عن تقصيري وزللي، فإني بشر أصيب وأخطئ، فما كان فيه من صواب فمن فضل الله تعالى علي وكرمه، وما كان من خطأ فمن نفسي، ويعلم ربي أني ما تعمدت التقصير، وحسن ظني في الله تعالى أن المجتهد مأجور على الحالين، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [هود: ٨٨]. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

دكتور
ربيع يوسف شحاته الجهمي
الأستاذ المساعد في التفسير وعلوم القرآن الكريم
في جامعة الأزهر، المشارك في جامعة تبوك

المبحث الأول

العـــذاب المهـــين

(تعريف وبيان)

أولا: المراد بالعذاب المهين:

(أ) أما في اللغة:

فالعَذَابُ: هو النَّكَالُ والعُقُوبة؛ يُقَالُ: عَذَّبْتُه تَعْذِيباً وعَذَاباً، وقد عَذَّبَهُ تَعْذِيباً: أكثر حبسه في العَذَابِ؛ قال تعالى: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [النمل: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، أي: ما كان ليعذبهم عذاب الاستئصال، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾: [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة: ١٧٤]، ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحجر: ٥٠].

واختلف في أصله، فقال بعضهم: هو من قولهم: عَذَبَ الرّجلُ: إذا ترك المأكل والنّوم، فهو عَاذِبٌ وعَذُوبٌ، فَالتَّعْذِيبُ في الأصل هو حمل الإنسان أن يُعَذَّبَ، أي: يجوع ويسهر. وقيل: أصله من العَذْبِ، فَعَذَّبْتُهُ أي: أزلتُ عَذْبَ حياته، على بناء مرّضتُه وقذّيتُه. وقيل: أصل التَّعْذِيبِ إكثارُ الضّرب بِعَذَبَةِ السّوطِ، أي: طرفها. وقد قال بعض أهل اللّغة: التَّعْذِيبُ هو الضّربُ. وقيل: هو من قولهم: ماءٌ عَذَبٌ إذا كان فيه قَذًى وكَدَرٌ، فيكون عَذَّبْتُهُ كقولك: كدّرتُ عيشَه، وزلّقت حياته[1].

والمُهِين: الْمِيمُ وَالْهَاءُ وَالنُّونُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى احْتِقَارٍ وَحَقَارَةٍ فِي الشَّيْءِ؛ يقال: أهانه يُهينه إهانةً، أي: أذلَّه واحتقره، فهو مُهِينٌ، اسم فاعل من (أهان)، ومُهانٌ اسم مفعول. وأَهانه وهَوَّنه واسْتَهانَ بِهِ وتَهاوَنَ بهِ: استخفَّ بِهِ واستحقره. وَرَجُلٌ فِيهِ مَهانة أَي ذُلٌّ وَضَعْفٌ. فالمُهِينُ: المُذِلُّ المُحَقِّرُ، والمُهَان:

(١) يراجع: مقاييس اللغة لابن فارس: ٤/ ٢٦٠، ولسان العرب للفيروزابادي: ١/ ٥٨٥، والغريبين في القرآن والحديث للهروي: ٤/ ١٢٤٢، والمفردات في غريب القرآن للراغب: ص: ٥٥٤، ٥٥٥.، مادة (عذب).

الذليل الحَقِيرُ أو المُحَقَّرُ، والإهانة: الاحتقار، وَالْمَهَانَةُ: الْحَقَارَةُ، والهُوْنُ: بالضَّمِّ: الخِزْيُ؛ وَمِنْه قَوْلُه تَعَالَى: {فأَخَذَتْهُمُ صاعِقَةُ العَذابِ الهُونِ} أَي: عذاب الخِزْيِ[1].

(ب) وأما في الاصطلاح:

فلم تخرج أقوال المفسرين في المراد به عن معناه الذي تقرر في اللغة؛ وذلك حيثما ورد في القرآن الكريم.

– ويجمع عباراتهم فيه قول الطبري رحمه الله: "والعذاب المُهين: هو المُذِلُّ، المخزي، المُلبسُ صاحبَه هوانًا وذلةً"[2]. وقول الشوكاني رحمه الله: "هو المشتمل على الإذلال والفضيحة"[3].

فالعذاب المهين عذاب نفسي، يذل النفوس، ويخزيها، ويحقرها، ويفضحها.

وأذكر في خاتمة البحث إن شاء الله تعالى ما انجلت عنه الدراسة في المراد بالمتوعَّدين بهذا العذاب المهين، وأهله، وأسبابه؛ وذلك بعد الدراسة التفسيرية التحليلية لمواضعه في القرآن الكريم.

ثانيا: مواضع ورود وصف العذاب بالمهين في القرآن الكريم:

ورد وصف العذاب بالمُهِين في القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضعا:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة: ٩٠].

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٤].

الرابع قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النساء: ٣٧].

الخامس: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء: ١٠٢].

---

(١) يراجع: الصحاح: ٦/ ٢٢١٨، ومقاييس اللغة: ٥/ ٢٨٣، ولسان العرب: ١٣/ ٤٣٨، مادة والمفردات في غريب القرآن: ص٨٤٨، ٨٤٩، وتاج العروس: ٣٦/ ٢٩١، مادة (هون).

(٢) جامع البيان: ٢/ ٣٤٧..

(٣) فتح القدير: ٢/ ٣٤٧. ويراجع مثلا: النكت والعيون للماوردي: ١/ ١٥٩، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب: ١/ ٣٤٨، والكشاف للزمخشري: ٤/ ٤٨٩ومعالم التنزيل للبغوي: ١/ ١٢٣، والمحرر الوجيز لابن عطية: ١/ ١٧٩، والتفسير الكبير للرازي: ٣/ ٦٠٢، وزاد المسير لابن الجوزي: ١/ ٨٨، ومدارك التنزيل للنسفي: ١/ ١٠٩، والبحر المحيط لأبي حيان: ١/ ٤٩١، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود: ١/ ١٢٩، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/ ٢١٨، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ١/ ٦٠٦.

السادس: قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥١].
السابع: قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾ [الحج: ٥٧].
الثامن: قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفرقان: ٦٩].
التاسع: قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾ [لقمان: ٦].
العاشر: قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].
الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الجاثية: ٩].
الثاني عشر: قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾ [المجادلة: ٥].
الثالث عشر: قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾ [المجادلة: ١٦].

ثالثا: الله تعالي لا يجب عليه شيء:

أجمع أهل السنة والجماعة على أنه لا يجب على الله تعالى لأحد شيء البتة، فالمُلْك مُلْكه، وليس لأحد عليه استحقاق. فلا يجب على الله تعالى إثابة الطائعين ولا عقاب العاصين، فإن أثاب فبمحض فضله، وإن عاقب فبمحض عدله، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[الأنبياء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: ٦٨].

وأجمعوا على أن الله تعالى لو عذب جميع من في السموات والأرض لم يكن ظالما لهم، ولو أدخل جميع الكافرين الجنة لم يكن ذلك محالا؛ لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، وليس لأحد عليه اعتراض؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة ١٧].

ولكنه سبحانه أخبر أنه ينعم على المؤمنين أبدا، ويعذب الكافرين أبدا، وقوله الصدق، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ

لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ق: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: ٤٩][1].

** وما ورد من نصوص قرآنية يوهم ظاهرها وجوب شيء على الله تعالى؛ كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ [النساء: ١٧] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود: ٦]؛ حيث يوحي لفظ (على) في الآية الأولى بأنه يجب على الله تعالى قبول التوبة؛ وفي الثانية بأنه يجب على الله تعالى إيصال الرزق إلى كل دابة.

فإنه كما قال المحققون من المفسرين: وجوب بحسب الوعد والكرم والفضل والإحسان، لا وجوب الاستحقاق، والله تعالى لا يخلف الميعاد. وأن الكلام على تقدير حذف مضاف، والتقدير: على فضل الله ورحمته لعباده[2].

****

(١) يراجع: التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي: ص٥٠، ٥١، ولمع الأدلة للجويني: ص١٢٢، والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي: ص٨٩ – ٩٦، ومعالم أصول الدين للرازي: ص١٣٧، وشرح العقيدة الطحاوية: ٢/ ٦٥٩– ٦٦٣، والتفسير الكبير للرازي: ١٢/ ٣٨، و١٤/ ١٠١.

(٢) يراجع: التفسير البسيط للواحدي: ، والمحرر الوجيز: ٢/ ٢٨، والتفسير الكبير: ١٠/ ٦، و١٧/ ١٤٩، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٥/ ٩١، والدر المصون للسمين الحلبي: ٣/ ٦٢٢.

المبحث الثاني
مواضع وصف العذاب بالمهين
في القرآن الكريم

الموضع الأول

البغي على أنبياء الله تعالى، والاستكبار عليهم، والإعراض عن الإيمان حسدا وجحودا

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [البقرة: ٨٧ – ٩٠].

التفسير والبيان:

وردت هذه الآيات الكريمة في شأن اليهود، في سياق آيات فضحتهم ونعت عليهم كثيرا من جناياتهم؛ فبعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة جانبا من جناياتهم مع نبيهم موسى –عليه السلام– بيَّن سبحانه في هذه الآيات الكريمة جانبا آخر من جناياتهم مع من جاء بعده من الأنبياء والرسل –عليهم الصلاة والسلام–، إلى رسول الله ﷺ، وقضى عليهم باللعنة والكفر، وتوعدهم بالعذاب المهين في الآخرة.

وقد دل سياق الآيات على أسباب استحقاقهم هذا العذاب المهين، وبيانه:

أولا: أنهم بغوا واستكبروا على أنبياء الله تعالى من لدن موسى عليه السلام؛ فكذبوا فريقا، وقتلوا فريقا آخر:

يدل عليه قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [البقرة: ٨٧].

وقد صُدِّر الكلام بالتأكيد القوي –القسم، وقد–؛ إظهارا لكمال العناية بما جاء بعده؛ من إرسال موسى عليه السلام وإيتائه التوراة، وإرسال مَنْ بعده من الأنبياء، وإيتاء عيسى ابن مريم المعجزات الواضحات؛ تمهيدا لما يُذكر بَعْدُ من تفصيل جحودهم واستكبارهم على الأنبياء والمرسلين؛ **حيث قال تعالى:**

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

وهو معطوف على مقدر، أي: أرسلنا إليكم يا بني إسرائيل من الأنبياء ما أرسلنا أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم ...الخ.

والاستفهام لتوبيخ المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم وتعنيفهم؛ لاستوائهم مع سلفهم في البغي والاستكبار عن قبول الهدى، والاستكبار: المبالغة في الكبر، وهو هنا الترفع عن اتباع الرسل، وإعجابهم بأنفسهم، واعتقاد أنهم أعلى من أن يطيعوا الرسل، ويكونوا أتباعا لهم(١).

والمعنى: أفكلما جاءكم رسول بما لا يوافق هوى أنفسكم استكبرتم عن الإيمان به؛ احتقارا له، واستهانة به، ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: فبلغ بكم الطغيان والاستكبار والاستهانة إلى حد أن كذَّبتم فريقا، كعيسى ومحمد عليهما السلام، وقتلتم فريقا كيحيى وزكريا عليهما السلام!!(٢).

وعُبِّر بالمضارع ﴿تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾: لاستحضار تلك الحالة الفظيعة، وهي قتلتهم الأنبياء!!؛ والمراد بذلك آباؤهم؛ لأنهم هم الذين باشروا قتل الأنبياء، وأضيف ذلك إلى المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم وخوطبوا به؛ من حيث كان الراضي بالشيء كفاعله، وهم راضون به.

وقيل: عُبِّر بالمضارع للإيماء إلى أنهم مستمرون على تلك النية، مصرون عليها، متبعون لآبائهم فيها!!(٣)؛ حيث همُّوا بما لم ينالوا في حق النبي عليه الصلاة والسلام، إذ سحروه وسمموا له الشاة؛ حتى قال صلى الله عليه وسلم: **(يَا عَائِشَةُ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ)**(٤).

ويجوز أن يقال أيضا: عُبِّر بالمضارع: (تقتلون)، بدل الماضي: (قتلتم)، فجاء الفعل مغايرا لما قبله (كذبتم)، مخالفا للمتبادر إلى الذهن، للفت النظر إلى

(١) يراجع: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ١/ ٥٩٦. بتصرف.
(٢) يراجع: فتح القدير للشوكاني: ١/ ١٣٠، والتحرير والتنوير: ١/ ٥٩٨.
(٣) يراجع: البحر المحيط: ١/ ٤٩١، ٤٩٢، وإرشاد العقل السليم: ١/ ١٢٧، والتحرير والتنوير: ١/٥٩٨.
(٤) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه: في كتاب: المغازي، باب: مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته، ٦/ ٩، ح(٤٤٢٨). والأَبْهَر: عرق مرتبط بالقلب إذا انقطع مات الإنسان. (النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ١/ ١٨).

تلك الجريمة الشنعاء، وهي قتلهم أنبياءهم!!، والتي هي أشد جرما، وأكبر إثما من التكذيب، فجاءت المغايرة هنا استفظاعا للقتل، واستحضارا لصورته الشنيعة، للتعجب منها واستخلاص العبرة من مطاويها(١).

وقد تناسبت تلك المغايرة مع حال اليهود المعكوسة وما هم عليه من ضلال شديد؛ فإرسال الرسل طريق موصل للهداية والرشاد، والعاقل هو من يكرم من أراد له الهداية ويحتفي به، لكن اليهود انعكس حالهم، وأعماهم الاستكبار والجحود والاستهزاء، فبدلا من أن يكرموا هؤلاء الهداة ويلتفوا حولهم ويناصروهم قتلوهم!!(٢).

ثانيا: أنهم أعرضوا عن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم إعراض المستكبر الجاحد:

يدل عليه قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وقائل ذلك هم المعاصرون للنبي عليه الصلاة والسلام، وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ إبعادا لهم عن رتبة الخطاب؛ لِمَا فُصِّل من مخازيهم وجناياتهم(٣).

والمعنى: وقالوا قلوبنا مغطاة مغلفة لا تعي ما تقول(٤). يقولون ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم استكبارا وجحودا -لا طلبا للعلم والمعرفة-؛ لإقناطه وتيئيسه وقطع طمعه في إسلامهم؛ رغم معرفتهم اليقينية به صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من الحق.

---

(١) يراجع: إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش: ٢/ ٥٣٠.

(٢) ملخص من: الصورة المعكوسة في البيان العربي، دراسة بلاغية للدكتور ياسر عبد الحميد عرقوب، ص١٧٦٨، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط جامعة الأزهر، العدد (٣٨)، الجزء الثاني، ٢٠١٩م.

(٣) يراجع: إرشاد العقل السليم: ١/ ١٢٧، والتحرير والتنوير: ١/ ٥٩٩.

(٤) الغُلْف: بضم فسكون جمع أغلف، وهو الشديد الغلاف، مشتق من غَلَّفه، إذا جعل له غلافا، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ بيِّن الغُلْفة: كأَنه غُشِّي بِغِلافٍ فهو لا يَعِي شيئا، والمراد به هنا: الذي عليه غشاوة تمنع من وصول الكلام إليه، ومنه غَلَّفت السيف: أي جعلت له غلافا. (يراجع: لسان العرب: ٩/ ٢٧١، مادة (غلف).

وربما أرادوا أيضا أن قلوبهم مستورة محفوظة عن فهم ما يدعوهم إليه من الضلالات؛ استكبارا منهم واحتقارا لما يدعوهم إليه من الحق؛ وهو كقول المشركين: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥].

فرد الله تعالى عليهم قولتهم الباطلة تلك، وطردهم من رحمته؛ بسبب استكبارهم وكفرهم، فقال سبحانه: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾.

أي: بل طردهم الله من رحمته بسبب كفرهم الذي تقدم تفصيل بعضه، وعدم إيمانهم المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾، "والفاء لبيان سبب لعنهم، وهو عدم إيمانهم، والمعنى: فإيمانا قليلا يؤمنون؛ وهو إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعضه(١)، وقيل: فزمانا قليلا يؤمنون(٢)، وكلاهما ليس بإيمان حقيقة، ولهذا قيل: أريد بالقلة: العدم؛ قاله الفراء(٣)"(٤).

ثالثا: أنهم استكبروا عن الإيمان بالقرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وسلم؛ جحودا واستكبارا:

يدل عليه قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

وهو مسوق لتوبيخهم وتعنيفهم وتقريعهم أيضا؛ إذ كفروا بالقرآن الكريم مع علمهم بعظمته وقداسته، وبأنه جاء مصدقا لأصول كتابهم، وكونهم كانوا من قبلُ يستنصرون على أعدائهم بمن أُنزل عليه، وهذا منتهى الاستكبار والجحود!!.

ومما قوى ذلك التوبيخ والتعنيف مجيء لفظ الكتاب –وهو القرآن الكريم– منَكَّرًا، وكذا الإخبار عنه بأنه من عند الله، ووصفه بأنه مصدق لما معهم؛ وفي ذلك كله تعظيم لشأن القرآن الكريم وتشريف له، وإشارة إلى أنه يجب أن يُتلقى

(١) قال تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾ [البقرة: ٨٥]..
(٢) قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢﴾ [آل عمران: ٧٢].
(٣) معاني القرآن للفراء: ١/ ٥٩.
(٤) يراجع: إرشاد العقل السليم: ١/ ١٢٧، والتحرير والتنوير: ١/ ٦٠٠.

بالقبول، لا أن يُكفر به، كما صنعوا –قبحهم الله–، وفي ذلك من ذمهم وتوبيخهم والتعريض بهم ما فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾: أي: فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم، وهم يعرفونه كمعرفتهم أبناءهم، وكانوا يستفتحون به، وجاءهم بالقرآن؛ جحدوا نبوته، وكفروا بكتابه؛ جحودا واستكبارا، كما نص عليه في الآية الآتية.

فاستحقوا بسبب ذلك الجحود والاستكبار لعنة الله تعالى؛ قال سبحانه: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾، واللام للعهد، أي: فلعنة الله عليهم، ووضع الظاهر موضع المضمر للتشنيع عليهم بكفرهم، وللإشعار بأن حلول اللعنة عليهم إنما كان بسبب كفرهم، على ما أفادته الفاء من السببية. أو أن اللام للجنس، وهم داخلون في الحكم دخولا أوليا؛ إذ الكلام فيهم، وأيًّا ما كان فهو محقق لمضمون قوله تعالى فيهم: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾[1].

رابعا: أنهم استكبروا عن الإيمان بالقرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وسلم؛ حسدا من عند أنفسهم:

يدل عليه قول الله تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

وهو استئناف مسوق لذمهم والتشنيع عليهم أيضا؛ والمعنى: بئس الشيء الذي باعوا به أنفسهم وبذلوها[2]، وهو الكفر بالقرآن الكريم المصدّق لما معهم.

وفيه بيان لحقارة وخسة ما باعوا به أنفسهم، وهو كفرهم بالقرآن؛ حسداً وحقدا من عند أنفسهم؛ لأجل أن نزَّله الله على من شاء من عباده، فعادوا بغضب من الله زيادة على سابق غضبه عليهم[3].

(١) يراجع: إرشاد العقل السليم: ١/ ١٢٩، والتحرير والتنوير: ١/ ٦٠١، ٦٠٢.
(٢) اشتروا هنا بمعنى: باعوا. معاني القرآن للفراء: ١/ ٥٦، قال أبو حيان: "هذا قول الأكثرين"، البحر المحيط: ١/ ٤٨٩.
(٣) يراجع: البحر المحيط: ١/ ٤٨٩، وإرشاد العقل السليم: ١/ ١٢٩، والتحرير والتنوير: ١/ ٦٠٤.

ثم بيَّن سبحانه علة كفرهم هذا بقوله: ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ و(بغيا) أي: حسدًا من عند أنفسهم[1]؛ لأنهم لم يشكُّوا في نبوته صلى الله عليه وسلم، وإنما حسدوه على ما أعطاه الله تعالى، حسدوه أن جعل الله تعالى النبوة في آل إسماعيل دون آل إسحاق عليهما السلام، على ما كانوا يَهْوُون، فكتموا نعته؛ حسدا وبغضا، ولا بَغْيَ أقبح من بَغْيِ من يريد الحجر على فضل الله تعالى.

وهذا الحسد نابع من شدة استكبارهم؛ إذ لم يتواضعوا فيقبلوا الحق الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

فباءوا بسبب ذلك بغضب مترادف متكاثر من الله تعالى عليهم؛ قال تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾: أي: فرجعوا من تلك الصفقة -وهي بيع أنفسهم- بالخسران المبين، ملتبسين بغضب كائن على غضب، مستحقين له، حسب ما اقترفوا من كفر على كفر، وهو تمثيل لحالهم بحال الخارج بسلعته لتجارة فأصابته خسارة فرجع خاسرا. فالمراد بقوله: ﴿بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾: تكاثر غضب الله عليهم وشدته؛ على حد قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] أي نور عظيم، وقوله تعالى: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠]، أي ظلمات شديدة[2].

** ولما كان اليهود بهذا القدر من البغي والاستكبار والجحود، والحسد، لعنهم الله تعالى، وحكم عليهم بالكفر، وتوعدهم بالعذاب المُهين؛ حيث قال سبحانه: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩٠﴾.

قال الطبري: "والعذاب المُهين: هو المُذِلُّ، المخزي، المُلبسُ صاحبَه هوانًا وذلةً"[3]. والمعنى: ولليهود عذاب مُذِلٌّ مخزي يسحق نفوسهم ويفضحهم. فاللام

(١) معاني القرآن للزجاج: ١/ ١٧٣، قال اللحياني: "والبَغْيُ: أَصله الْحَسَدُ، ثُمَّ سُمِّيَ الظُّلْمُ بَغْياً؛ لأَن الْحَاسِدَ يَظْلِمُ الْمَحْسُودَ جُهْدَه طلبا لإزالة نعم اللَّهِ عَنْهُ". لسان العرب: ١٤/ ٧٩، مادة (بغا).

(٢) يراجع: إرشاد العقل السليم: ١/ ١٢٩، والتحرير والتنوير: ١/٦٠٥، ٦٠٦.

(٣) جامع البيان: ٢/ ٣٤٧، وهذا قول عامة المفسرين، يراجع مثلا: النكت والعيون: ١/١٥٩، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب: ١/ ٣٤٨، ومعالم التنزيل: ١/١٢٣، والمحرر الوجيز: ١/ ١٧٩، والتفسير الكبير: ٣/ ٦٠٢، ومدارك التنزيل: =

للعهد، وعُبِّر بالظاهر بدل المضمر للتشنيع عليهم بالكفر، وإن قيل اللام للجنس: فهم داخلون في هذا الحكم دخولا أوليا؛ إذ الكلام فيهم(١).

والتعبير باللام في (وللكافرين) وهي التي تكون للثواب تهكم ظاهر بهم، إذ هو في الحقيقة عذاب واقع عليهم، لا لهم.

** ومن هذا البيان نرى أن وصف عذاب اليهود في الآخرة بالمهين جاء مناسبا مناسبة تامة لحالهم –لعنهم الله وقبحهم–؛ حيث إنهم:

١– أهانوا أنبياء الله تعالى الذين جاءوا لهدايتهم؛ حين استكبروا وبغوا عليهم، فكذبوا فريقا وقتلوا فريقا آخر!!.

٢– أهانوا كتب الله المنزلة واستخفوا بها حين جحدوها ولم يؤمنوا بها.

٣– أن هذه الاستهانة وذاك الاستكبار والجحود كان ديدنهم من لدن موسى عليه السلام إلى نبينا صلى الله عليه وسلم؛ إذ استهانوا به أيضا؛ حين جحدوه وجحدوا كتابه؛ وهم الذين كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وينتظرون مجيئه ويستنصرون به على أعدائهم، ثم زادوا إلى ذلك البغي حسدهم إياه صلى الله عليه وسلم أن أنزل الله تعالى عليه كتابه الكريم.

ولهذا كله لم يكن كفرهم إنكارا مجردا لما لا يعلمون صوابه من خطئه، وإنما كان جحودا، –لما علموا صحته وصوابه–، واستكبارا وبغيا، وإهانة واحتقارا لأنبياء الله تعالى وكتبه؛ بعد وضوح الحجج، وظهور البينات؛ فكان جزاؤهم وفاقا؛ من جنس عملهم؛ عذابًا مُذلا، مُحقِّرًا، ومُخزيًا لهم.

فاستحقوا أن يجمع الله تعالى عليهم ألم العذاب الجسدي، وألم العذاب النفسي، بإذلالهم على رؤوس الأشهاد؛ جزاء وفاقا!!

قال المفسرون: "لما كان كفرهم سببه التكبر والحسد، قوبلوا بالإهانة والصغار، جزاء تكبرهم عن اتباع الحق؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ

= ١/ ١٠٩، وإرشاد العقل السليم: ١/ ١٢٩، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢١٨/١، والتحرير والتنوير: ١/ ٦٠٦

(١) يراجع: البحر المحيط: ١/ ٤٩١، ٤٩٢، وإرشاد العقل السليم: ١/ ١٢٩، والتحرير والتنوير: ١/ ٦٠٦.

﴿عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠] أي: صاغرين حقيرين ذليلين راغمين(١).

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: **(يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الخَبَالِ)**(٢)، وفي رواية الإمام أحمد: **(... يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ ...)**(٣).

فاللهم إنا نعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل.

قال المفسرون: إن الله تعالى لما وصف عذاب الكفار بالمُهين دلَّ على أن ثَمَّ عذابا غير مُهين، فليس كل عذاب في الآخرة مُهينا، ومن ذلك ما يكون تمحيصا للعصاة من المؤمنين، كأهل الكبائر، فإنه ليس لإهانتهم، وإنما لتمحيصهم من آثامهم، ثم يُدخلهم الله تعالى الجنة بفضله، ويُخلدهم في نعيمها(٤).

(١) يراجع: التفسير الكبير: ٣/ ٦٠٢، والبحر المحيط: ١/ ٤٩١، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/ ٢١٨.

(٢) الحديث: أخرجه الترمذي في سننه: في أبواب صفة القيامة: ٤/ ٦٥٥، ح(٢٤٩٢)، وقال: حديث حسن. وأحمد في مسنده: في مسند عبد الله بن عمرو بن العاص: ١١/ ٢٦٠، ح(٦٦٧٧)، وقال محققه: إسناده حسن، والبخاري في الأدب المفرد: باب الكبر، ص١٩٦، ح(٥٥٧)، وقال محققه: إسناده حسن.

(٣) هي التي سبق تخريجها عند الإمام.

(٤) يراجع: جامع البيان: ٢/ ٣٤٧، النكت والعيون: ١/ ١٥٩، والهداية إلى بلوغ النهاية: ١/ ٣٤٨، ومعالم التنزيل: ١/ ١٢٣، والمحرر الوجيز: ١/ ١٧٩، والتفسير الكبير: ٣/ ٦٠٢، وإرشاد العقل السليم: ١/ ١٢٩، والتحرير والتنوير: ١/ ٦٠٦.

الموضع الثاني

الحرص على القضاء على دين الله، والازدياد من الآثام

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٦- ١٧٨]

التفسير والبيان:

وردت آية الباب مع الآيتين الكريمتين قبلها عزاء وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لما أصاب المسلمين في غزوة أحد، وفيها يتوعد الله تعالى أهل الكفر به بالعذاب المهين في الآخرة.

ولما كانت هذه الآية الكريمة مسلوكة مع الآيتين قبلها في سلك واحد في ذم أهل الكفر بالله تعالى ووعيدهم؛ وجب استجلاء سياقها كله ومعرفة مضامينه للوقوف على أسباب وعيد الله إياهم بهذا العذاب المهين.

وقد دل سياق الآيات على أسباب استحقاقهم هذا العذاب المهين، وبيانه:

أولا: أنهم حريصون أشد الحرص على نصرة الكفر وأهله، وإذلال الإسلام وأهله:

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾. [آل عمران: ١٧٦]

وهو كلام مستأنف، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو نهي إرشاد مسوق للمبالغة في تسليته صلى الله عليه وسلم وتسكين قلبه عن الحزن بسبب شدة حرص الكافرين على نصرة الكفر، وسعيهم سعيا حثيثا في سبيل ذلك، صدا للناس عن دين الله؛ ورغبة في إذلال الإسلام وأهله(١).

(١) وقد كان صلى الله عليه وسلم يحزن ويعتصره الأسى لعدم إيمان قومه، واستكبارهم، وجحودهم، واستهانتهم بآيات الله؛ حتى كادت نفسه أن تذهب من الحسرة، لأنه أرحم خلق الله بخلقه؛ كما قال تعالى في آيات أخر: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ٣].

وهذا واضح من ورود هذه الآيات بعد الحديث عن غزوة أحد، وما أصاب المسلمين فيها من أهل الكفر بالله تعالى، ومن التعبير بمسارعتهم في الكفر، ومن يسارع في الكفر إنما غرضه إيصال الضرر بالإسلام وأهله، ولهذا نفى الله تعالى مضرتهم دينَه؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾:

قيل: "هم المنافقون، وقيل: هم قوم من العرب ارتدوا عن الإسلام، وقيل: هم كفار قريش، وقيل: هو عام في جميع الكفار"(١).

قلت: وهو الأَوْلى، ويكون الخطاب من بعده صلى الله عليه وسلم لكل مكلف من الأمة، وتلك المسارعة في الكفر واقعة في كل عصر.

ومعنى ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾: أي: أنهم يحرصون على الكفر أشد الحرص، ويَجِدُّون فيه، ويبذلون قصارى جهدهم في نصرته، وفي تزيينه للناس(٢)، وفي صد الناس عن دين الله؛ يفعلون ذلك في نشاط دائم ومسارعة مستمرة.

وفي التعبير بالفعل ﴿يُسَارِعُونَ﴾: الدال على المفاعلة دلالة على أنهم يبذلون غاية الجهد في الكيد لدين الله؛ لأن من يسارع غيره يكون أشد حرصا على الظفر مما لو كان يُسْرِع وحده؛ إضافة إلى دلالته على الاستمرار والتجدد تجددا يشي بالإصرار على تلك المسارعة.

" لأن من يرغب الكفر سريعاً غرضه مراغمة المؤمنين وإيصال المضرة إليهم، يدل عليه إيتاء قوله: (لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً) رداً وإنكاراً لظن الخوف،

وهناك فرق بين كافر يقتصر كفره على نفسه، وبين كافر يناصب المسلمين العداء ويسعى جاهدا مستمرا في النيل منه.

قال الطاهر بن عاشور: "وفيه استعارة تمثيلية: حيث شبه حال حرصهم في هذا الكفر، وجِدِّهم في تكفير الناس، وإدخال الشك على المؤمنين، وتربصهم بهذا الدين الدوائر، وانتهازهم الفرص لإذلاله وأهله؛ بحال الطالب المسارع إلى تحصيل شيء يخشى أن يفوته، وهو متوغل فيه متلبس به، فلذلك عُدِّي بـ (في)

(١) يراجع: جامع البيان: ٧/ ٤١٨، ٤١٩، والنكت والعيون: ١/ ٤٣٩، والتفسير البسيط للواحدي: ٦/ ١٩٣، وفتح القدير: ١/ ٤٦١.

(٢) مستفاد من: الكشاف: ١/ ٤٤٣، والمحرر الوجيز: ١/ ٥٤٤، والتحرير والتنوير: ٤/ ١٧٢، مع زيادات.

الدالة على سرعتهم سرعة طالب التمكين، لا طالب الحصول؛ إذ هو حاصل عندهم، ولو عُدِّي بـ (إلى) لفُهم منه أنهم لم يكفروا عند المسارعة"[1].

ثم بين الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم الحكمة من إرشاده إلى عدم الحزن عليهم؛ **فقال تعالى:** ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾:

وهو تعليل للنهي وتكميل للتسلية بتحقيق نفي ضررهم دين الله أبدا، فالكلام على حذف المضاف، و(شيئا) منصوب على المصدرية، أي: شيئا من الضرر، والتنكير فيه لتأكيد ما فيه من القلة والحقارة، وقيل: على نزع الجار، أي بشيء ما أصلا[2].

وفي هذا التعبير الكريم دلالة صريحة على أنهم قصدوا بمسارعتهم في الكفر أن يضروا دين الله، فنفى الله تعالى ذلك نفيا أبديا، بأداة النفي (لن) للدلالة على استحالة ذلك في الحال والاستقبال، وأكد الكلام بـ (إن) واسمية الجملة.

والمعنى: ولا يحزنك مسارعة الكافرين في الكفر؛ لأنهم لن يضروا دين الله شيئا، مهما جَدُّوا في الكيد له، وصدوا الناس عنه. وفي هذا تسلية عظيمة للنبي صلى الله عليه وسلم، وتبشير له بالنصر عليهم.

ثم بين الله تعالى أن ضرر إصرارهم على الكفر ومسارعتهم في نصرته كيدا في الإسلام وأهله عائد عليهم وحدهم؛ **فقال تعالى:** ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾:

أي: يريد الله تعالى بسبب مسارعتهم في الكفر أن لا يجعل لهم في الآخرة نصيبا من الثواب، وبئست الخسارة!!، ولذلك يتركهم الله في طغيانهم يعمهون؛ إمهالا واستدراجا لهم، إلى أن يهلكوا على الكفر، وذلك من شدة سخطه تعالى عليهم؛ لأنهم يحاربون دينه.

"ولما كانت المسارعة في الشيء دالة في اعتقاد المسارع على عظم شأنه وجلالة قدره، لا جرم قضى الله عليهم بالعذاب العظيم؛ مقابلة لما اعتقدوا فيه

(١) التحرير والتنوير: ٤/ ١٧٣، بتصرف، وزيادة.
(٢) إرشاد العقل السليم: ٢/ ١١٦. بتلخيص. ويراجع: الدر المصون: ٣/ ٤٩٦، وقد قدر المفسرون المضاف: "أولياء"، أي: أولياء الله، وما ذكرته أولى؛ لشموله الدين وأهله.

العظمة وهو حقير؛ تنبيها على حقارتهم وحقارة ما سارعوا فيه، وخسته في نفسه"[1]؛ فقال تعالى:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾: أي: وعليهم في الآخرة عذاب عظيم، لا يقادر قدره. وفي التعبير باللام التي تكون للثواب تهكم ظاهر بهم.

ثانيا: أنهم أعرضوا عن الإيمان، واستبدلوا به الكفر، قاصدين الإضرار بدين الله تعالى!!:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧٧].

والمعنى: إن الذين استبدلوا الكفر بالإيمان، أي: أخذوه بدلا منه رغبة فيما أخذوه، وإعراضا عما تركوه[2].

والتعبير بالاشتراء غاية الذم والتقبيح لهم؛ لأنه يدل على أنهم كانوا متمكنين من قبول هذا وهذا، وأنهم أخذوا الكفر وتركوا الإيمان!!.

وفي تكرير قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾: دلالة صريحة أخرى على أنهم قصدوا باستبدالهم الكفر بالإيمان أن يضروا دين الله تعالى، فأعاد الله تعالى نفي مرادهم تأكيدا وتسجيلا عليهم؛ ليزول كل ظن لهم في نوال ذلك.

والمعنى: إنهم لن يضروا دين الله شيئا ما، في الحال أو الاستقبال، وإنما يضرون أنفسهم.

و"لما كانت عادة المشتري الاغتباط بما اشتراه والفرح به إن كانت الصفقة رابحة، والتألم والحزن إن كانت خاسرة، وكان هؤلاء الكفار مغتبطين بشرائهم الكفر بالإيمان؛ لما كان الأمر كذلك جعل الله تعالى عذابهم في الآخرة أليما؛ ليذيقهم مرارة ألم الخسران، مقابلة لسرورهم في الدنيا بما اعتقدوه من الربح في استبدالهم الكفر بالإيمان[3]؛ فقال تعالى:

---

(١) مستفاد من: البحر المحيط: ٣/ ٤٤٧، والدر المصون: ٣/ ٥٠٦، ٥٠٧، ونظم الدرر للبقاعي: ٥/ ١٣٤، ١٣٥ وإرشاد العقل السليم: ٢/ ١١٦- ١١٨.

(٢) مستفاد من: جامع البيان: ٧/ ٤٢٠، ومعالم التنزيل للبغوي: ١/ ٥٤٣، ومدارك التنزيل: ١/ ٣١٤، وإرشاد العقل السليم: ٢/ ١١٦، وفتح القدير: ١/ ٤٦٢، والتحرير والتنوير: ٤/ ١٧٤.

(٣) ملخص من: البحر المحيط: ٣/ ٤٤٧، والدر المصون: ٣/ ٥٠٦، ٥٠٧، ونظم الدرر للبقاعي: ٥/ ١٣٤، ١٣٥ وإرشاد العقل السليم: ٢/ ١١٦- ١١٨.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ : أي: ولهم –تهكما بهم– عذاب أليم لا يقادر قدره، وهو بيان لكمال فظاعة عذابهم بذكر غاية إيلامه، بعد ذكر نهاية عِظَمه.

ثانيا: أنهم ازدادوا آثاما فوق الكفر، بإمداد الله إياهم وإمهاله لهم!!:

لما بيَّن الله تعالى في الآيتين السابقتين شدة مسارعتهم في الكفر، واستبدالهم إياه بالإيمان؛ رغبة في القضاء على دين الله تعالى، وكان إمهال الله تعالى لهم وعدم أخذه إياهم مدعاة لتطاولهم وتجبرهم وزيادة آثامهم، ومدعاة أيضا لظنهم أن ذلك خير لهم؛ بيَّن سبحانه في هذه الآية أنه يتركهم في هذا الغَيّ استدراجا لهم؛ لتتراكم عليهم الآثام، حتى يهلكوا على الكفر، وأن لهم في الآخرة عذاب يذلهم ويخزيهم؛ فقال تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨]

والإملاء: هو الإمْدادُ، والإمْهالُ، والتأْخير، وإطالةُ العُمُر[(١)]. قال الزجاج: "هؤلاء قوم أعلم الله نبيه صلى الله عليه وسلم أنهم لا يؤمنون أبداً، وأن بقاءهم يزيدهم كفراً وإثماً"[(٢)].

قرأ الجمهور (ولا يحسبن) بالياء التحتية، وقرأ حمزة (ولا تحسبن) بالتاء الفوقية[(٣)]، والمعنى: ولا يظنن الذين كفروا أن إمهالنا لهم، وإطالتنا لأعمارهم، وتوسيعنا عليهم، هو خير لهم، أي خير لهم باعتبار زعمهم هم، بل هو شر لهم في الواقع والحقيقة!!. وفي ذلك تهديد شديد وتخويف لهم.

وعلى قراءة حمزة يكون الخطاب بالنهى عن ذلك الحسبان متجها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ومن بعده لأمته، وهو الأنسب بمقام تسليته صلى الله عليه وسلم. والمعنى: ولا تحسبن يا محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يحسبن أحد من أمتك أن إملاءنا للذين كفروا هو خير لأنفسهم، بل هو شر لهم[(٤)].

(١) يراجع: غريب القرآن لابن قتيبة: ص: ١١٦، غريب القرآن للسجستاني: ص: ٤٧٢، ولسان العرب: ١٥/ ٢٩٠، والمفردات في غريب القرآن: ص: ٧٧٦.
(٢) معاني القرآن وإعرابه: ١/ ٤٩١.
(٣) النشر في القراءات العشر لابن الجزري: ٢/ ٢٤٤.
(٤) مستفاد من حجة القراءات لابن زنجلة: ص١٨٣، والجامع لأحكام القرآن: ٤/٢٨٧، ٢٨٨، والدر المصون: ٣/ ٤٩٦– ٥٠٠.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾: استئناف مبين لحكمة الإملاء والإمهال، واقع موقع التعليل للنهى عن حسبان الإملاء خيرا للكافرين(١)، فاللام في (ليزدادوا) هي لام العاقبة.

والمعنى: لأننا إنما نمدهم ونمهلهم ونؤخرهم، ونطيل أعمارهم ونزيد في عيشهم؛ لأجل أن يزدادوا آثاما.

ففي الآية دليل على أنهم يزدادون بإملاء الله لهم آثاما على كفرهم، وزيادة الآثام أمارة على بلوغهم المدى في كفرهم، وحينئذ لا يستبعد على الكافر الذي أملى الله له فأطال الله في عمره، وأمده بالنعم، وأمهله فلم يعجل عقابه، لا يستبعد عليه اقتراف أي ذنب من الذنوب، مهما بلغ خطره وعِظَمُه!!. فإن الازدياد من الآثام مع الكفر مدعاة للتجبر والاستهانة بدين الله تعالى.

ولهذا قضى الله تعالى عليهم بالعذاب المهين في الآخرة؛ جزاء وفاقا؛ ليذلهم ويخزيهم ويفضحهم على رؤوس الأشهاد؛ فقال تعالى:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾: أي: ولهم –تهكما بهم– في الآخرة عذاب يذلهم ويحقرهم ويخزيهم.

**** تتمة:**

جمع الله تعالى على أهل الكفر في هذه الآيات الثلاث ثلاثة أصناف من العذاب: (عظيم، وأليم، ومُهين)، والظاهر أنه لا تكرار في ذلك، فهي إما أنواع ثلاثة مختلفة من العذاب، وإما عذاب واحد جمع هذه الصفات المختلفة. والظاهر أيضا: أن أولئك الكافرين –ومن يماثلهم– قد استحقوها جميعا؛ جزاء وفاقا؛ لفداحة جرائمهم وخطرها؛ لأن مسارعتهم في الكفر، واستبداله بالإيمان، وشدة حرصهم على القضاء على دين الله تعالى، مع ازدياهم في الآثام بإمهال الله تعالى لهم وإنعامه عليهم؛ كل ذلك جعلهم مستحقين لأن يجتمع عليهم عذاب الجسد وعذاب النفس، ليكون عذاب أجسادهم عظيما في شدته، شديدا في ألمه، وليكون عذاب نفوسهم مذلا لها، محقرا إياها، فاضحا لهم على رؤوس الأشهاد. والله تعالى أعلم.

(١) مدارك التنزيل للنسفي: ١/ ٣١٤، وإرشاد العقل السليم: ٢/ ١١٨، وروح المعاني للآلوسي: ٢/ ٣٤٧.

الموضع الثالث

تعدي حدود الله، والاستهانة بشرعه

يقول الله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء: ١٣، ١٤].

التفسير والبيان:

بعد أن بيَّن الله تعالى في الآيات السابقة من أول السورة أحكاما تتعلق باليتامى، والزوجات، والوصايا، والمواريث، بيَّن في هاتين الآيتين أن هذه الأحكام إنما هي حدوده التي فرض التزامها وعدم تجاوزها، وبشر المطيعين بالجنة، ووعدهم بالفوز العظيم، وأنذر العصاة بالنار؛ وتوعدهم بالعذاب المهين.

والمراد بهذا العصيان ههنا الكفر؛ على أرجح القولين، على ما سيتضح قريبا في موضعه.

وقد دلت الآيتان الكريمتان على أن سبب استحقاق هذا العذاب المهين: إنما هو الكفر بالله تعالى، والاستهانة بشرعه عز وجل، وبيانه:

** أنه عصى الله تعالى بكفره، وبرز في صورة المغتر المتجاسر على شرعه المستهين بحدوده:

ومن فضل الله تعالى على عباده وإقامة للحجة عليهم أنه تعالى بيَّن أحكامه، في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، ورغَّب في امتثالها، ورهَّب من تعدِّيها؛ حتى إذا تعداها أحد كان كافرا به سبحانه وكان مستحقا للعقاب والنكال:

يقول الله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾ [النساء: ١٣].

** وقد ابتدأ الله تعالى ذلك بالإعلان عن تعظيم أحكامه؛ **فقال تعالى:** ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ ﴾:

و﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى كل ما تقدم من الأحكام من أول السورة في أحوال اليتامى، والزوجات، والوصايا، والمواريث، أو إشارة إلى أحكام المواريث خاصة(١). والقول بعمومها لكل الأحكام أولى في نظري، ليشملها جميعا ذلك الوعد والوعيد، والله أعلم.

وفي التعبير باسم الإشارة للبعيد دلالة على عظمة وجلال تلك الحدود، لا سيما أنها مضافة إلى الله سبحانه وتعالى.

والحدود: جمع حَدٍّ، والحَدُّ: الحاجِزُ بين الشيئين الذي يَمنعُ اختلاطَ أحدهما بالآخر، وقيل هو: النِّهَايَة التي إذا بلغَهَا المَحْدُود له امْتنع، والحَدُّ: مَا حدده الله تعالى، أو ما حَدَّ الله تعالى منه: أي مَنَعَ(٢).

و﴿ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾: شرائعه المحدودة التي لا يجوز مجاوزتها"(٣). وسماها الله تعالى حدوداً؛ لأن الشرائع كالحدود المضروبة للمكلفين، لا يجوز لهم أن يتجاوزوها ويتخطوها إلى ما ليس لهم بحق(٤).

وفي تسمية أحكام الله تعالى بالحدود، وإضافتها إلى لفظ الجلالة؛ إشعار بعظمتها وجلالها، وتنبيه على شدة حرمتها، وإشارة إلى وجوب التزامها؛ وأن تقديسها من تقديس الله، ورعايتها وتعظيمها من تعظيم الله؛ إذ هي حدوده التي فرضها وأمر بإقامتها.

ولا يخفى ما في هذا التعبير الكريم: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ من الترغيب والترهيب الضمنيين، يشهد هذا أصحابُ القلوب العامرة بذكر الله، وأصحاب القلوب القابلة للهدى والرشاد.

** وبعد هذا الإعلان العظيم تفضل الله تعالى على عباده فرغَّبهم في إقامة أحكامه، قبل أن يحذِّرهم من تعدِّيها؛ تلطفا ورحمة بهم، **فقال تعالى:**

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾.

---

(١) التفسير الكبير: ٩/ ٥٢٥، ٥٢٦، والبحر المحيط: ٣/ ٥٥٠.
(٢) يراجع: غريب القرآن للسجستاني: ص: ١٩٨، والغريبين في القرآن والحديث: ٢/ ٤١٣، والمفردات في غريب القرآن: ص: ٢٢١.
(٣) إرشاد العقل السليم: ٢/ ١٥٤.
(٤) الكشاف: ١/ ٤٨٧، والبحر المحيط: ٣/ ٥٥٠.

أي: ومن يطع الله تعالى فيما شرع ورسوله صلى الله عليه وسلم فيما بَيَّن، في جميع الأوامر والنواهي التي من جملتها ما فُصِّل ههنا، يدخله جنات تجري من تحت أشجارها ومساكنها الأنهار، ماكثين فيها أبداً، لا يخرجون منها، ولا يموتون، ولا يفنون.

وجاء التعبير بأسلوب الشرط لإفادة عموم هذا الوعد لكل طائع لله ورسوله، محافظ على حدود الله، وللإشعار بتحقق هذا الجزاء بتحقق الشرط، زيادة في التوكيد.

وإظهار الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ لإبراز كمال التعظيم والإجلال، ولتربية المهابة وإدخال الروعة في النفوس.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما مر من دخول الجنات الموصوفة بما ذكر على وجه الخلود. والإشارة بالبعيد (ذلك) دلالة على كمال هذا الفوز وعلو منزلته.

﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ الفوز: أي: الفلاح والظفر بالخير، والعظيم: هو الذي دونه كل ظفر، وفوز وفلاح.

ولا ريب أن هذا الترغيب العظيم كفيل بأن يلين القلوب القاسية، ويهدي النفوس الغافلة؛ فتقيم حدود الله تعالى عن حب ورضا نفس وسعادة.

** أما من قست قلوبهم فلا ينفع معهم الترغيب، ولا يثنيهم إلا الترهيب؛ ولهذا أعقب الله تعالى ذلك الترغيب بالترهيب من مخالفة أحكامه؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

والعِصيانُ: خِلافُ الطَّاعَة، يقال: عَصى العبدُ رَبَّهُ إذا خالَف أَمْرَه، وَعَصَى فُلانٌ أَميرَه يَعْصِيه عَصْياً وعِصْياناً ومَعْصِيَةً إذا لَمْ يُطِعْهُ، فَهُوَ عاصٍ وعَصِيٌّ، ويقال فيمن فارق الجماعة: فلان شقّ العَصَا [1].

وفي المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ قولان:

(١) لسان العرب: ١٥/ ٦٧. مادة (عصى)، والمفردات للراغب: ص٥٧٠.

الأول: أن المراد به الكافر، والعصيان بمعنى الكفر، وهو مروي عن مجاهد، والضحاك، وسعيد بن جبير، وابن جريج[١].

والثاني: أن المراد به المؤمن العاصي الذي يَرُدُّ أحكام الله تعالى، ويتعدى حدودها مستحلا لها، أو منكرا مشروعيتها، قالوا: ومن فعل ذلك فقد كفر، وصار حكمه كحكم الكافر الأصلي في الخلود في النار، إذا مات على ذلك وهو مُصِرٌ لم يتب[٢].

والأوْلى –والله أعلم– هو الجمع بين القولين، فتكون الآية في كل كافر بالله تعالى، سواء كان كافرا أصلا، أو كان مؤمنا فكفر بإنكاره مشروعية هذه الأحكام؛ لأن القول الثاني يعود عند التحقيق إلى القول الأول.

قال الرازي رحمه الله: "والعموم في هذه الآية مختص بالكافر، لأن كلمة (مَنْ) في معرض الشرط تفيد العموم، ولم يقم مخصص عقلي أو شرعي على تخصيصه، ولورود قوله تعالى: ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾، بعد قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فلو كان المراد منه عينه للزم التكرار، وهو خلاف الأصل، فوجب حمله على الكفر"[٣].

قلت: وهو المناسب للعقاب الذي رتبه الله تعالى على ذلك العصيان، حيث جعله الله تعالى خلودا في نار جهنم، وتوعد فاعله بالعذاب المهين، وعصاة المؤمنين لا يخلدون في جهنم، ولا يهانون فيها، وإنما يمحَّصون ثم يدخلون الجنة بفضل الله تعالى.

---

(١) يراجع: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: ٣/ ٨٩٢، والتفسير البسيط للواحدي: ٦/ ٣٧٥، والتفسير الكبير: ٩/ ٥٢٧، وزاد المسير: ١/ ٣٨١، والجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٨٢، والتسهيل لعلوم التنزيل: ١/ ١٨٢، ومدارك التنزيل: ١/ ٣٤٠، ولباب التأويل في معاني التنزيل: ١/ ٣٥٣.

(٢) يراجع: جامع البيان: ٨/ ٧٢، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: ٣/ ٨٩٢، ويراجع: الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٨٢، والبحر المحيط في التفسير: ٣/ ٥٥١، والبحر المديد لابن عجيبة: ١/ ٤٧٨، وتفسير ابن كثير: ٢/ ٢٠٣، ٢/ ٢٠٤، وإرشاد العقل السليم ٢/ ١٥٤.

(٣) التفسير الكبير: ٩/ ٥٢٧، بتلخيص.

والمعنى: ومن يكفر بالله ورسوله، ويتعد شرائعه التي شرعها، وحدوده التي حدها؛ منكرا لها أو مستحلا ردها ومخالفتها؛ يدخله نارا عظيمة هائلة خالدا فيها، لا يخرج منها، ولا يموت، ولا يفنى.

ويكون قوله تعالى: ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، من باب ذكر الخاص بعد العام للتأكيد، ولا ريب أن الكافر قد ضيَّع بكفره حدود الله تعالى، وتعدى شرعه.

** ولما كان العاصي (الكافر) المتعدي حدود الله تعالى قد برز في صورة المغتر المتجاسر على معصية الله، المستهين بحدوده؛ توعده الله سبحانه بالعذاب الذي يذله في الآخرة ويحقره ويخزيه؛ جزاء وفاقا؛ **فقال تعالى:**

﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾:

أي: ولهذا الكافر المتعدي حدود الله تعالى مع العذاب الجسدي عذاب آخر أشد قسوة وإيلاما، إنه عذاب الذل والخزي والصغار، على رؤوس الأشهاد.

وفي تقديم الجار والمجرور (له) إشارة إلى تخصيص هذا الكافر بهذا العذاب دون غيره، وقصره عليه؛ إمعانا في إذلاله وتحقيره وخزيه.

* ومن دقائق التعبير القرآني في هاتين الآيتين:

مجيء خبر الله تعالى عن أهل الطاعة بصيغة الإفراد: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، حتى إذا دخل الطائع الجنة، انتقل الأسلوب من الإفراد إلى الجمع: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

ومجيء خبره سبحانه عن أهل المعصية بصيغة الإفراد قبل دخول النار وبعد دخولها: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾، ولعل السر في ذلك والله تعالى أعلم:

– أن مجي الخبر عن الفريقين بالإفراد قبل دخول الجنة ودخول النار: للدلالة على المسؤولية الفردية المنوطة بكل مكلف عن عمله الذي يرفعه إلى أهل الجنة، أو يهوي به مع أهل النار، فكل نفس بما كسبت رهينة، وكل عامل مجازى بما عمل.

– وأما انتقال الأسلوب إلى الجمع بعد دخول أهل الجنة الجنة، وبقاؤه على الإفراد بعد دخول أهل النار النار، فقد قال المفسرون فيه:

إنما جمع في الطائعين فقال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، للإيذان بأن الخلود في الجنة إنما يكون مع الأهل والأحباب؛ فضلا من الله تعالى وكرما؛ ليكون أجلب للأنس وأكمل للفرح والسرور وأتم للنعيم؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾ [الطور: ٢١].

وأَفْرَد في العاصين فقال: ﴿خَٰلِدٗا فِيهَا﴾؛ للإيذان بأن الخلود في النار إنما يكون على الانفراد؛ ليكون أشد وحشة وألما لنفوسهم، فيجتمع عليهم فيها العذاب الحسي والعذاب النفسي!(١).

ولا يخفى ما في هذا الترهيب من تمام التخويف والتحذير لكل مؤمن تسول له نفسه أن يتعدى أي حد من حدود الله تعالى.

*****

(١) مستفاد من البحر المحيط: ٣/ ٥٥١، وتفسير ابن كثير: ٢/ ٢٠٣، ونظم الدرر: ٥/ ٢١٥، وإرشاد العقل السليم: ٢/ ١٥٤، وروح المعاني: ٢/ ٤٤٣، والتحرير والتنوير: ٤/ ٢٦٨.

الموضع الرابع

الاستكبار عن الدخول في الإسلام، والصد عنه

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النساء: ٣٦، ٣٧].

التفسير والبيان:

لما أمر الله تعالى المؤمنين في الآية السابقة بعبادته عز وجل، وبالإحسان إلى الوالدين ومن ذُكر معهما من المحتاجين، فقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ﴾ [النساء: ٣٦]، عقَّب سبحانه الآية بالتحذير من ضد ذلك، فنفى محبته عن المستكبرين عن الإيمان به تعالى، المتكبرين على عباده، المعجبين بأنفسهم؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦]، ثم ذكر سبحانه بعدها تفصيلا لخصال هذا الصنف من الناس، وتوعدهم بالعذاب المهين في الآخرة؛ فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾[النساء: ٣٧].

وجمهور المفسرين على أن هذه الآية نزلت في اليهود(١).

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ...﴾: في محل نصب بدل من ﴿مَن﴾ أو من ﴿مُخْتَالًا﴾، وجُمع حَمْلاً على المعنى. أو في محل نصب صفة لـ (مَنْ)، كأنه قيل: لا يُحِبُّ المختال الفخورَ البخيلَ(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: ٨/ ٣٥٣، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي.
وهو اختيار جمهور المفسرين: يراجع مثلا: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/ ٥١، وبحر العلوم للسمرقندي: ١/ ٣٠٢، وتفسير القرآن العزيز لابن زمنين: ١/ ٣٧٢، والنكت والعيون: ١/ ٤٨٧، والتفسير البسيط للواحدي: ٦/ ٥٠٨، ٥٠٩، وزاد المسير لابن الجوزي: ١/ ٤٠٤، ٤٠٥، والتفسير الكبير للرازي: ١٠/ ٧٨، والتسهيل لابن جزيء: ١/ ١٩١، والبحر المحيط: ٣/ ٦٣٤- ٦٣٥، ولباب التأويل للخازن: ١/ ٣٧٥، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب: ٣/ ٧٨٩ ، وغيرها من كتب التفسير.

(٢) يراجع: التفسير البسيط للواحدي: ٦/ ٥٠٨، ٥٠٩، والكشاف: ١/ ٥٠٩، والتبيان في إعراب القرآن للعكبري: ١/ ٣٥٦، والبحر المحيط: ٣/ ٦٣٥- ٦٣٦، والدر المصون: ٣/ ٦٧٦، ٦٧٧.

وعليه: فمعنى الآية متصل بختام الآية السابقة، والمختالون الفخورون الذين لا يحبهم الله تعالى هم الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل. وهو ما أرجحه.

ويجوز أن يكون في محل رفع: مبتدأ وخبره محذوف، تقديره: "مُبْغَضُون" أو "مُعَذَّبون"، أو "أَحِقَّاء بكل مَلامة"، أو خبر لمبتدأ مضمر أي: هم الذين(١).

وعليه: تكون الآية مستأنفة، لكن الأوْلي أن تكون متصلة بمعنى ما قبلها.

واليهود هم الذين جمعوا بين الاختيال والفخر والبخل بالمال وكتمان ما أنزل الله من صفة نبيه صلى الله عليه وسلم في التوراة، وأمروا غيرهم بذلك.

وقد دلت الآيات على أسباب استحقاقهم هذا العذاب المهين، وبيانه:

أولا: أنهم مستكبرون متعاظمون على الدخول في الإسلام:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾

والاختيال: هو التكبر. والفخر: هو التطاول والتعاظم على الناس(٢).

وهذا وعيد من الله تعالى لكل من وقع في ذلك، لكنه وعيد ممزوج بالرحمة والشفة والتلطف بالعباد، تحريضا من الله تعالى لهم على الإيمان، وحثا لهم على الطاعة والانقياد، على ما يفيده التعبير بـ (لا يحب) دون (يكره).

نفى الله تعالى محبته عن المتصفين بهاتين الصفتين، وسياق القرآن الكريم يدل على أن نفي محبته تعالى يأتي على درجات، فقد ينفيها الله تعالى عن عصاة المؤمنين، وقد ينفيها عن الكافرين الجاحدين، ولكل منهما مقام مرتبط بالفاعل نفسه، إن كان من المؤمنين أو كان من الكافرين.

فمن الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾ [لقمان: ١٨]، فمحبة الله تعالى منفية ههنا عن المؤمن العاصي باختياله وفخره. ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾ [آل عمران: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ [الحج: ٣٨]، ومحبة الله منفية ههنا عن الكافر لكفره، وشتان بين المقامين.

(١) يراجع: التفسير البسيط للواحدي: ٦/ ٥٠٨، ٥٠٩، والكشاف: ١/ ٥٠٩، والتبيان في إعراب القرآن للعكبري: ١/ ٣٥٦، والبحر المحيط: ٣/ ٦٣٥- ٦٣٦، والدر المصون: ٣/ ٦٧٦، ٦٧٧.

(٢) التفسير البسيط: ٦/ ٥٠٨، والمحرر الوجيز: ٢/ ٥١، والبحر المحيط: ٣/ ٦٣٣.

وبناء عليه: إن جعلنا هذا الختام متصلا بمعنى الآية التي ورد فيها منفصلا عن الآية التالية كان في عصاة المؤمنين، وإن جعلناه متصلا بما بعده كان في اليهود. ويجوز حمله على العموم، فيدخل فيه كل المختالين الفخورين؛ كل بحسب موقفه من الإيمان والكفر.

ولما كانت هاتان الصفتان لا تقعان إلا من آحاد المسلمين، وكانتا خصلتين أصيلتين في اليهود اعتقادا وطبعا، كان حملهما عليهم في هذا الموضع أولى من وجهة نظري؛ تعريضا بهم، وتحذيرا لهم.

فاليهود من أشد الناس تكبرا عن الدخول في الإسلام، وحقدا وحسدا عليه وعلى أهله، كما أنهم من أشد الناس تكبرا واحتقارا لغيرهم، وتطاولا عليهم، أليسوا هم الذين عدّوا أنفسهم خلقا آخر غير خلق الناس، ونسبوا أنفسهم إلى الله، فقالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]!!.

فإن كان الاختيال والفخر واقعا من آحاد المسلمين، فإنه طبع واعتقاد في اليهود، والآية الآتية فيهم بالدرجة الأولى.

ثانيا: أنهم يبخلون ويأمرون غيرهم بالبخل؛ استكبارا وتجبرا وصدًّا للناس عن دين الإسلام!!:

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾:

وفي الذي بخلوا به وأمروا الناس بالبخل به قولان:

أحدهما: أنه إظهار نعت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ونبوّته؛ كتموه، وأمروا أتباعهم بكتمانه؛ قاله مجاهد، وقتادة، والسدي(١).

والثاني: أنه المال، بخلوا بالإنفاق في طاعة الله عز وجل، وأمروا الناس بذلك؛ قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وطاووس.

حيث روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناسا من اليهود كانوا يأتون رجالا من الأنصار، فيقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون ما يكون! فأنزل الله فيهم: ﴿الَّذِينَ

(١) جامع البيان: ٨/ ٣٥٣، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: ٣/ ٣/ ٩٥٢، والنكت والعيون: ١/ ٤٨٧، وزاد المسير: ١/ ٤٠٤، ٤٠٥.

﴿يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾"[1].

– والظاهر أنهم كانوا –ولا يزالون– يبخلون بالأمرين، فهم الذين يبخلون بما في أيديهم من مال الله تعالى؛ حرصا على الحياة وتشبثا بها، قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة: ٩٦].

ولسوء طباعهم لم يكتفوا بمنع الخير عن الناس من جهتهم، وإنما أغرقوا في ذلك إلى حد لم يبلغه أحد من العالمين؛ إذ يأمرون غيرهم بالبخل أيضا؛ حسدا أن ينال شرف الإحسان أحد، وحقدا أن يصل الإحسان إلى أي إنسان!!، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [النساء: ٥٢ – ٥٣].

يصف الشوكاني –رحمه الله– تلك الرذيلة فيقول: "وهؤلاء المذكورون في هذه الآية، ضموا إلى ما وقعوا فيه من البخل الذي هو أشر خصال الشر ما هو أقبح منه وأدل على سقوط نفس فاعله، وبلوغه في الرذالة إلى غايتها، وهو أنهم مع بخلهم بأموالهم وكتمهم لما أنعم الله به عليهم من فضله يأمرون الناس بالبخل؛ كأنهم يجدون في صدورهم من جود غيرهم بماله حرجا ومضاضة، فلا كثَّر الله في عباده من أمثالكم، هذه أموالكم قد بخلتم بها لكونكم تظنون انتقاصها بإخراج بعضها في مواضعه، فما بالكم بخلتم بأموال غيركم؟ مع أنه لا يلحقكم في ذلك ضرر، وهل هذا إلا غاية اللؤم، ونهاية الحمق والرقاعة، وقبح الطباع، وسوء الاختيار"[2].

– وهم الذين بخلوا بما عندهم من العلم بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وأمروا أتباعهم بكتمانه، يشير إلى ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة: ٧٦]. مع أنهم كانوا ينتظرون مبعثه، ويستنصرون به صلى الله عليه وسلم على أعدائهم؛ يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ

(١) المصادر السابقة، نفس المواضع.
(٢) فتح القدير للشوكاني: ١/ ٥٣٨.

﴿ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

والتعبير بلفظ (الناس): ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ فيه مبالغة في ذمهم، وبيان لشدة تجبرهم وعنادهم؛ إذ فيه إشارة إلى أنهم لم يتركوا أحدا يعرفوه إلا أمروه بذلك؛ نكاية في الإسلام وأهله؛ مما أهلهم لهذا العذاب المهين الذي توعدهم الله به.

كما أن التعبير بصيغة الأمر ﴿وَيَأْمُرُونَ﴾ يدل على شدة استعلائهم وتكبرهم ومحاولة فرض عقيدتهم على غيرهم بالأمر، فهم لا (يحثون الناس) أو (يحضون الناس) وإنما (يأمرون الناس)!!.

ثالثا: أنهم يكتمون ما آتاهم الله من فضله؛ صدا للناس عن دين الإسلام:

يقول الله تعالى: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٣٧]، أي: ويكتمون ما آتاهم الله من فضله من المال والغنى، ومن العلم بصفته عليه الصلاة والسلام في التوراة.

وهذه إشارة صريحة إليهم بعد تلك الإشارتين المضمرتين، تدل على مدى ضلوعهم في البخل بفضل الله تعالى، وتشير من طرف إلى إصرارهم على ذلك.

وفي التعبير بالمضارع: ﴿يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ﴾، و﴿وَيَكْتُمُونَ﴾ دلالة على أنهم –قبحهم الله– مستمرون على تلك الخصال السيئة في كل عصر.

* ولما كانت فعالهم هذه منبئة عن استكبارهم واستعلائهم وغرورهم، دالة على استهانتهم بدين الله تعالى؛ لا جرم توعدهم الله تعالى بالعذاب المهين يوم القيامة.

فهم المستكبرون عن الإيمان، المتكبرون على عباد الله، المتطاولون عليهم، المعجبون بأنفسهم، الباخلون بما أتاهم الله من المال، وبما خصهم الله من العلم بصفات النبي صلى الله عليه وسلم، والآمرون غيرهم بالبخل، حقدا وحسدا، والكاتمون ما آتاهم الله من فضله.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النساء: ٣٧].

أي: وأعددنا وأحضرنا وهيأنا[1]، للكافرين عذابا يذل نفوسهم ويخزيهم ويكسر أنوفهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، كما استكبروا في الدنيا، جزاء وفاقا، وهو أنكى وأشد عليهم من عذاب الجسد. وفيه مبالغة شديدة في الوعيد، يشير إلى ذلك التعبير بـ (وأعتدنا للكافرين)، بدل (وللكافرين).

"ووضع الظاهر (للكافرين) موضع المضمر (لهم): تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف، وإعلاماً بأن تلك الفعال حاملة على الكفر"[2]. فالآية وإن كانت في اليهود؛ فإن وعيدها عام يشمل كل كافر مستكبر متجبر مستعلٍ.

****

(١) معاني القرآن للزجاج: ٢/ ٥١، والمحرر الوجيز: ٢/ ٥٢، والبحر المحيط: ٣/ ٦٣٦.
(٢) نظم الدرر: ٥/ ٢٧٩.

الموضع الخامس

محاربة دين الله تعالي

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء: ١٠٢].

التفسير والبيان:

وردت هذه الآية الكريمة في سياق آيات تتحدث عن بعض أحكام الجهاد والمجاهدين، وفيها يبين الله تعالى كيفية الصلاة أثناء الحرب، وهي الصلاة المسماة بصلاة الخوف، ويختمها بوعيد الكافرين بالعذاب المهين.

أخرج الإمام أحمد في مسنده عَنْ أَبِي عَيَّاشٍ الزُّرَقِيِّ قَالَ: **(كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعُسْفَانَ فَاسْتَقْبَلَنَا الْمُشْرِكُونَ عَلَيْهِمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَهُمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظُّهْرَ، فَقَالُوا: قَدْ كَانُوا عَلَى حَالٍ لَوْ أَصَبْنَا غِرَّتَهُمْ، ثُمَّ قَالُوا: تَأْتِي عَلَيْهِمُ الآنَ صَلاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، قَالَ: فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ بِهَذِهِ الآيَاتِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾** [النساء: ١٠٢])[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾: خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، ليعلِّم أمته، والمعنى: وإذا كنت معهم يا محمد صلى الله عليه وسلم وهم يصلون صلاة الخوف في الحرب فلتأتم بك طائفة منهم وهم مدججون بأسلحتهم احتياطاً، ولتقم الطائفة الأخرى في وجه العدو، كما يدل عليه ما يأتي.

---

(١) الحديث أخرجه: أحمد في مسنده، واللفظ له: ٢٧/ ١٢٠، وقال محققه: إسناده صحيح. وأبو داود في سننه: كتاب: أبواب صلاة السفر، باب: صلاة الخوف: ٢/ ٤٢٣، ح(١٢٣٦)، وقال محققه إسناده صحيح.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ﴾: أي: فإذا أتمت الطائفة التي تصلي خلفك صلاتهم، فليقوموا في مواجهة العدو، وعبر بالسجود عن الصلاة دلالة على فضله، إذ هو أعظم أركانها.

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾: أي: فإذا فرغت الطائفة الأولى من الصلاة فلتأت الطائفة الذين قاموا إزاء العدو إلى مكانها لتصلي خلفك. وفيه دليل على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى منتظرا للطائفة الثانية، فإذا حضروا صلى بهم ما بقي من صلاته ثم جلس ينتظرهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾: أمر للطائفة الذين يصلون بأن يأخذوا حذرهم، وأن يحملوا سلاحهم، احتراسا من العدو، وتأهبا لقتالهم إن قاتلوا.

وقوله تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾: تعليل للأمر بأخذ الحيطة والحذر وحمل السلاح أثناء الصلاة، والمعنى: تمنى أعداؤكم أن تنشغلوا بصلاتكم عن أسلحتكم وأمتعتكم فيأخذوكم غرة، ويشدوا عليكم شدة واحدة فيقتلوكم وأنتم تصلون؛ لأن الحرب خدعة، وأعداء الله حريصون كل الحرص على الإيقاع بكم والنيل منكم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾: تخفيف من الله تعالى ورفع للحرج عن المصلين صلاة الخوف في حالة المطر أو المرض، أي: ولا إثم عليكم أثناء الصلاة في حالة المطر أو المرض أن لا تحملوا أسلحتكم إذا ضعفتم عن حملها.

وقوله تعالى: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾: تأكيد ثان على اليقظة وأخذ الحذر والحيطة، حتى لا ينشغلوا بالصلاة فيتمكن الأعداء منهم، وينقضُّوا عليهم(١).

وتفصيل ما تضمنته هذه الآية الكريمة من كيفية صلاة الخوف مبسوط في موضعه من كتب الفروع، وكتب أحكام القرآن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾:

وعيد شديد مؤكد تأكيدا قويا، بـ (إن)، وباسمية الجملة، وبالتعبير بلفظ الإعداد (أعدَّ)، وبدلالته على المضي، أي: أن هذا العذاب قد هيئ لهم فعلا، وهو ينتظرهم، وهم صائرون إليه لا محالة، والمعنى: إن الله تعالى هيأ للكافرين في الآخرة في جهنم عذابا مذلا مخزيا يبقون فيه أبدا لا يخرجون منه.

(١) مستفاد من مدارك التنزيل: ١/ ٣٩١، ٣٩٢، وإرشاد العقل السليم: ٢/ ٢٢٦- ٢٢٨.

والأظهر أن هذا العذاب مراد به عذاب الآخرة بدلالة التعبير بالفعل (أعدَّ)، أي: هيَّأ[1] لهم في الآخرة.

وقد دلت الآية الكريمة على أن سبب استحقاقهم هذا العذاب المهين، هو محاربة دين الله تعالى، وبيانه:

أن السياق العام الذي وردت فيه هذه الآية الكريمة مفعم بالحث على الجهاد وبيان بعض أحكامه، وإظهار منزلة المجاهدين، وآية الباب واحدة من آيات هذا السياق؛ إذ تضمنت كيفية الصلاة أثناء لقاء العدو، وهو مشهد عظيم من مشاهد الجهاد في سبيل الله تعالى، يملؤه الحذر والخوف، ويغشاه الترقب الشديد، ولهذا سميت تلك الصلاة بصلاة الخوف.

وهذه المشاعر من الخوف والترقب والحذر لم تكن إلا استجابة فطرية ودينية لما يعرفه المسلمون من شدة عداوة أهل الكفر، وحرصهم على القضاء على الإسلام وأهله، وبَذْلِهم في ذلك أرواحَهم فوق كل غال وثمين.

تصور الآية الكريمة هذا المشهد العصيب، فتنقل لنا حالة المجاهدين وهم وجها لوجه مع أعداء الله تعالى، الحريصين على إفنائهم، وهم حريصون أشد الحرص على أن لا تفوتهم فريضة دون أن يصلوها، وفي جماعة!!، وهم يحملون السلاح حذرين من أعدائهم، متأهبين للقتال في الحال إن لزم الأمر!!.

ذاك لأن الجهاد في سبيل الله إنما هو طاعة وعبادة، والهدف الأول منه إنما هو دعوة الناس إلى دين الله، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، والنصر فيه ليس لإذلال الناس، أو استعبادهم، أو الاستعلاء عليهم، وإنما للأخذ بأيديهم إلى طريق الحق وإلى صراط مستقيم.

ويصور المشهد أيضا: حالة الفريق الآخر، فريق أهل الكفر، المترقبين على أَحَرِّ من الجمر غفلة المجاهدين، الحريصين كل الحرص على ضرب الإسلام والمسلمين في مقتل لا يقومون منه أبدا، يدل على ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾، والمعنى: فيشدون عليكم شدة واحدة في حال غفلتكم[2].

٢- ويدل عليه أيضا: أَمْرُ الله المجاهدين مرتين في الآية الكريمة بأخذ الحذر من الأعداء، والبقاء في حمل السلاح وهم في الصلاة، ليكونوا على أعلى

(١) لسان العرب: ٣/ ٢٧٩، مادة (عتد).
(٢) الكشاف: ١/ ٥٦٠، والتحرير والتنوير: ٥/ ١٨٧.

درجة من الاستعداد للقاء الأعداء إن لزم الأمر؛ يقول الله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، ويقول تعالى: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾.

وهكذا صورت الآية الكريمة مشهد الفريقين، فريقٍ حريص على طاعة الله تعالى، حتى في أحلك الظروف، وفريقٍ حريص أشد الحرص على القضاء على الدين الحق وأهله.

** ولما كانت نية أهل الكفر من قتال المسلمين هي القضاء على الإسلام وأهله، والاستعلاء عليهم وإذلالهم، وإعزاز أنفسهم بالقضاء على دين الله؛ لا جرم قرر الله تعالى وعيدهم في الآخرة بالعذاب الذي يذل نفوسهم ويخزيهم؛ جزاء وفاقا لما كانوا عليه في الدنيا من محاربة دين الله تعالى.

وفي ذلك تبشير للمؤمنين –المنتصرين والمنهزمين– وطمأنة لقلوبهم، وجبر لخواطرهم، ليكونوا على يقين أنه مهما حصل لأعداء الله من نصر أو عز أو علو في الدنيا، فإن الله تعالى قد أعد لهم في الآخرة عذابا يكسر أنوفهم ويذلهم ويخزيهم، والعبرة بالخواتيم. هذا هو الأَوْلى في رأيي والله أعلم.

وقد ذهب من تحدث من المفسرين عن هذا الختام إلى جعله مرتبطا بالآية نفسها. وقَصَرَه بعضُهم على عذاب الدنيا، بانتصار المؤمنين عليهم، وعممه بعضهم في عذاب الدنيا والآخرة.

قالوا: إن الله تعالى لما حذر المؤمنين من مباغتة الأعداء لهم؛ فقال: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، وقال: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾، ربما أوهم ذلك توقع غلبتهم واعتزازهم واستعلائهم، فنفى الله عنهم ذلك الإيهام بإخبارهم أنه تعالى مهين أولئك الكافرين وخاذلهم على أيديهم، بالنصر عليهم؛ لتقوى قلوبهم، وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس لضعفهم وغلبة عدوهم، وإنما ليأخذوا حذرهم(١).

****

(١) يراجع: الكشاف: ١/ ٥٦٠، والمحرر الوجيز: ٢/ ١٠٧، والتفسير الكبير: ١١/ ٢٠٧، وأنوار التنزيل: ٢/ ٩٤، والبحر المحيط: ٤/ ٥٢، وروح المعاني: ٣/ ١٣٢. وغيرها من كتب التفسير.

الموضع السادس

الاستهانة بالله تعالى، وبرسله عليهم السلام

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ ﴾ [النساء: ١٥٠ – ١٥١].

التفسير والبيان:

لمَّا فضح الله تعالى المنافقين في الآيات السابقة وبيَّن ما هم عليه من سوء الخليقة، وفساد الطوية، وسيء الخصال، وتوعدهم بأشد العقاب، وحذَّر المؤمنين منهم؛ عقَّب ذلك ببيان ما عليه فريق آخر من أهل الضلال، وهم أهل الكتاب – اليهود والنصارى–، فذكر بعض عقائدهم الباطلة، وتوعدهم بالعذاب المهين في الآخرة.

أخرج الطبري وغيره عن قتادة والسدي وابن جريج أن هذه الآية نزلت في اليهود والنصارى، آمن اليهود بالتوراة وموسى عليه السلام، وكفروا بالإنجيل وعيسى عليه السلام. وآمن النصارى بالإنجيل وعيسى عليه السلام، وكفروا بالقرآن وبالنبي صلى الله عليه وسلم. واتخذوا اليهودية والنصرانية، وهما بدعتان ليستا من عند الله، وتركوا الإسلام وهو دين الله الذي بعث به رُسله عليهم السلام(١). وهو قول جمهور المفسرون، فالآية وعيد لليهود والنصارى ولكل من يصنع صنيعهم.

وقد دلت الآية الكريمة على أسباب استحقاقهم هذا العذاب المهين، وبيانه:

أولا: أنهم يكفرون بالله ورسله:

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾:

والمراد بهم اليهود والنصارى على ما سبق وما يأتي بيانه. وهو كلام مستأنف مؤكَّد بإن واسمية الجملة، لزيادة الترهيب والوعيد، و"في التعبير

(١) جامع البيان: ٩/ ٣٥٤، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: ٤/ ١١٠١، ١١٠٢، والتفسير البسيط للواحدي: ٧/ ١٧٤، وزاد المسير لابن الجوزي: ١/ ٤٩٢.

بالمضارع دلالة على أن هذا أمر متجدد فيهم مستمر، لأنهم لو كفروا في الماضي ثم رجعوا لما كانوا أحرياء بالذم"[1].

وقد وسَمَهم الله تعالى بالكفر ابتداء؛ لأنهم كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم، ومن كفر به صلى الله عليه وسلم فقد كفر بسائر الرسل، ومن كفر بهم أو ببعضهم فقد كفر بالله تعالى. ولأنهم كفار بالله تعالى من غير ما ذكره الله في هذه الآية، قال تعالى في شأن اليهود: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقال تعالى في شأن النصارى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ ﴾ [المائدة: ١٧].

ثانيا: أنهم يستهينون بدين الله تعالى، وقد تمثل ذلك في الآتي:

١- أنهم يريدون أن يفرقوا بين الإيمان بالله، والإيمان برسله:

يقول الله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾: أي: ويريدون أن يفرقوا بين الإيمان بالله والإيمان برسله؛ استهانة وتلاعبا بدين الله تعالى، فيدَّعون الإيمان بالله تعالى ثم يكذِّبون بعض رسله، ويظنون تمام إيمانهم، وذلك كفر بالله تعالى؛ لأن الإيمان بالله تعالى لا ينفصل عن الإيمان بكل رسله؛ قال الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. فلا يصح الإيمان بالله تعالى والتكذيب برسله، أو ببعضهم؛ لأن الله سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على ألسنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل أو بعضهم فقد ردوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أُمروا بالتزامها، وذلك كفر بالله تعالى[2].

ولضلوعهم في هذا الاستهزاء وتلك الاستهانة وتكررها منهم عُبِّر بالمضارع، ليدل على أن ذلك أمر مغروس فيهم متجدد منهم. والتعبير بالإرادة (يريدون أن

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ٩.

(٢) مستفاد من: جامع البيان: ٩/ ٣٥٢، والتفسير البسيط: ٧/ ١٧٤، وزاد المسير: ١/ ٤٩٢، والتفسير الكبير: ١١/ ٢٥٥، والجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٥، والبحر المحيط: ٤/ ١١٩، وغيرها من كتب التفسير.

يفرِّقوا) دون (فرَّقوا) يدل أن ذلك مجرد إرادة منهم فحسب، وأنه أمر مستحيل، لأنه لن يكون الإيمان بالله تعالى مقبولا أبدا إلا مع الإيمان بكل رسله.

٢- أنهم يتبعون الهوى في إيمانهم بأنبياء الله ورسله؛ استهانة بهم:

يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾:

أي: ويقولون: "نصدِّق بهذا ونكذِّب بهذا"، كما فعلت اليهود من تكذيبهم عيسى ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم، وتصديقهم بموسى وسائر الأنبياء قبله بزعمهم. وكما فعلت النصارى من تكذيبهم محمدًا صلى الله عليه وسلم، وتصديقهم بعيسى وسائر الأنبياء قبله بزعمهم(١).

فالقول ههنا مراد به اعتقاد القلوب لا قول الشفاه، وإلا ما قضى الله عليهم بالكفر، فتلك عقيدتهم التي عقدوا عليها قلوبهم، أعماهم الحقد والحسد، والعصبية المقيتة، فاستهانوا بدين الله تعالى، وجعلوه تابعا لأهوائهم، فكذبوا وصدقوا من المرسلين حسب أهوائهم، وورث الخلف السلف في تلك الاستهانة، حتى وصل الأمر إلى معاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يؤمنوا به رغم ظهور الحجج، ومعرفتهم به كمعرفتهم بأبنائهم.

"وما ذاك إلا كفر بالله تعالى ورسله، وتفريق في الإيمان بين الله تعالى ورسله؛ لأنه تعالى قد أمرهم بالإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام، وما من نبي من الأنبياء إلا وقد أخبر قومه بأحقية دين نبينا محمد صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين، فمن كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل وبالله تعالى أيضا"(٢).

٣- أنهم يبتدعون في دين الله على أهوائهم، استهانة وتلاعبا:

يقول تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾

أي: ويريد المفرِّقون بين الإيمان بالله والإيمان برسله -وهم اليهود والنصارى- أن يتخذوا دينا وسطا بين الإيمان والكفر(٣)؛ ابتداعا وتلفيقا واختلاقا، مع أنه لا واسطة بينهما قطعا؛ وماذا بعد الحق إلا الضلال!.

---

(١) جامع البيان: ٩/ ٣٥٢، ويراجع سائر كتب التفسير.
(٢) إرشاد العقل السليم: ٢/ ٢٤٨، ويراجع: التفسير البسيط: ٧/ ١٧٤.
(٣) يراجع: جامع البيان: ٩/ ٣٥٢، ٣٥٣، والتفسير البسيط: ٧/ ١٧٤، والمحرر الوجيز: ٢/ ١٣٠، والكشاف: ١/ ٥٨٣، والتفسير الكبير: ١١/ ٢٥٥، وإرشاد العقل السليم: ٢/ ٢٤٨، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل: ١/ ٤١٠.

وهذه نتيجة حتمية لتجاسرهم على دين الله، حرَّفوا وغيَّروا وبدَّلوا في دين الله، بعد أن كذَّبوا ما شاءوا، وصدَّقوا ما شاءوا، حسب أهوائهم، حتى صار ما بين أيديهم مَسْخًا، ليس فيه من الدين إلا الاسم، وما ذاك إلا استهانة وتلاعبا بدين الله تعالى.

** ولما كان كفرهم بالله تعالى مقرونا بالاستهانة بدينه، والتلاعب به حسب أهوائهم، ابتداعا واختلاقا، والاستكبار عن الإيمان بكل رسله عليهم السلام، لا جرم أعاد الله تعالى الحكم عليهم بالكفر تأكيدا، وتوعدهم بالعذاب المهين؛ فقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ﴾: أي: أولئك هم الكافرون الكاملون في الكفر، لا عبرة بما يدعونه ويسمونه إيمانا أصلا، وهو تأكيد يزيل مجرد التوهم في إيمانهم.

و"هذه الجملة هي خبر (إنَّ) والإشارة إلى أصحاب تلك الصلة الماضية، وفائدة الإشارة هنا: قَصْدُ التنبيه على أن المشار إليهم بتلك الأوصاف أحرياء بما سيحكم عليهم به من الحكم الوارد بعد اسم الإشارة.

وأفاد تعريف جزأي الجملة والإتيان بضمير الفصل (هم) تأكيد قصر صفة الكفر عليهم، وهو قصر ادعائي مجازي بتنزيل كفر غيرهم في جانب كفرهم منزلة العدم، كقوله تعالى في المنافقين: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ﴾ [المنافقون: ٤] .

ومثل هذا القصر يدل على كمال الموصوف في تلك الصفة المقصورة، ووجه هذه المبالغة: أن كفرهم قد اشتمل على أحوال عديدة من الكفر، وعلى سفالة في الخُلُق، وسفاهة في الرأي، فإن كل خصلة مما حكي عنهم إذا انفردت فهي كفر، فكيف بها إذا اجتمعت!!"(١).

وقد أكد الله تعالى كفرهم بقوله: ﴿هُمُ﴾، لئلا يتوهم أن ذلك الإيمان ينفعهم. كما أكده بقوله: ﴿حَقًّا﴾: أي: ثابتا يقينا لا شك فيه، كما تقول: "هذا عبد الله حقا"، أي: حقَّ ذلك حقًّا، أو هو نعت لمصدر محذوف أي: "كفرا حقا". وجيء بالتوكيد هنا لأن داعي الإيمان مشترك بين الأنبياء، وهو ظهور المعجزات على أيديهم، فكان تفريقهم في الإيمان بينهم دليل على كفرهم بالجميع؛ إذ ليس إيمانهم

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ١١، ١٢، بتصرف واختصار.

ببعض ناشئا عن النظر في الدليل، وإنما هم على سبيل التشهي والتلاعب بالدين"[1].

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾:

أي: وأعددنا وأحضرنا وهيأنا[2]، للكافرين عذابا مذلا مخزيا، يهينهم على رؤوس الأشهاد، كما استهانوا بدين الله تعالى، وتلاعبوا به حسب أهوائهم، وابتدعوا فيه ما يأذن به الله، واستكبروا عن الإيمان بكل رسله عليهم الصلاة والسلام؛ جزاء وفاقا، من جنس عملهم.

والإظهار ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ في موقع الإضمار لتسجيل الكفر عليهم، ولزيادة التهديد والوعيد، وفيه أيضا دلالة على تعميم هذا العقاب وتعلقه بكل من يفعل صنيعهم.

****

(١) البحر المحيط في التفسير: ٤/ ١١٩، ٤/ ١٢٠، بتصرف واختصار. ويراجع: الكشاف: ١/ ٥٨٣، وغيره.

(٢) معاني القرآن للزجاج: ٢/ ٥١، والمحرر الوجيز: ٢/ ٥٢، والبحر المحيط: ٣/ ٦٣٦.

الموضع السابع

الاستهزاء بوعيد الله تعالى، والاستهانة بآياته، والإعراض والاستكبار

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الحج: ٥٥ – ٥٧].

التفسير والبيان:

وردت هذه الآيات الكريمة في سياق آيات تناولت تكذيب المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم وإعراضهم عن الإيمان، واستكبارهم عليه، واستهانتهم بآيات الله، وسخريتهم من وعيده سبحانه، وعدم اتعاظهم بمصير المكذبين من الأمم السابقة، وفيها يتوعدهم الله تعالى بالعذاب المهين.

وحتى نقف على جرائمهم التي استحقوا بها هذا العقاب المذل المخزي يجب أن نستقرئ سياقها.

يقول الله تعالى:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾ [الحج: ٤٦ – ٥١].

وفي هذه الآيات الكريمة ينعى الله تعالى على المشركين المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم ويشنع عليهم بسبب إصرارهم على الكفر، وجحودهم بالآيات، وتعاميهم عن الاتعاظ بما وقع للمكذبين من الأمم السابقة، ويذكر سبحانه جانبا من جناياتهم؛ فيذكر استعجالهم العذاب؛ استكبارا وتهكما واستهزاء بوعيد الله تعالى، واستهانتَهم بآيات الله تعالى، واستكبارَهم عليها، وسعيَهم واجتهادَهم في التكذيب بها، والصد عنها؛ ظنا منهم أنهم يستطيعون ذلك؛ فتوعدهم الله تعالى بعذاب الجحيم.

ثم يسلي الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في الآيات التالية (الآيات: ٥٢-٥٤)[١] ويصبره على تكذيب قومه وإعراضهم؛ ثم يقرر سبحانه أن أولئك الكافرين سيبقون في شكهم وترددهم واضطرابهم، وتقلبهم في الشُبَه[٢] التي تحول بينهم وبين الدخول في الإسلام، حتى تأتيهم الساعة فجأة، أو يأتيهم عذاب يوم القيامة، وهم لا يزالون على الكفر!!؛ **يقول الله تعالى:**

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الحج: ٥٥ – ٥٧].

والتعبير بالمضارع ﴿ وَلَا يَزَالُ ﴾، و﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ﴾: يدل على أن ذلك مستمر منهم، وأنه لا يخلو منهم عصر إلى قيام الساعة. و"(حتى) غاية لاستمرار مريتهم، فالمعنى: حتى تأتيهم الساعة فجأة أو يأتيهم عذابها، في ذلك اليوم العقيم فتزول مريتهم ويشاهدون الأمر عيانا"[٣].

ووصف الله تعالى يوم القيامة بالعقيم[٤]؛ لأنه لا يوم بعده؛ "كأنَّ كل يوم يلد ما بعده من الأيام، فما لا يوم بعده يكون عقيما، والمراد به الساعة أيضا، كأنه قيل: أو يأتيهم عذابها، فوضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل"[٥].

---

(١) يقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحج: ٥٢ – ٥٤]..

(٢) الامتراء هو استخراج الشبه المُشْكِلة، ثم كثر حتى سمي الشك مرية وامتراء، ومنه ماراه مماراةً ومراءً: إذا استخرج ما عنده بالمناظرة، وامترى امتراء: إذا استخرج الشبه المُشْكِلة من غير حل لها. يراجع: معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري: ص: ٧٠.

(٣) البحر المحيط: ٧/ ٥٢٨، بتصرف.

(٤) يراجع: جامع البيان: ١٨/ ٦٧٣، والنكت والعيون للماوردي: ٤/ ٣٧، والكشاف: ٣/ ١٦٦، والتفسير الكبير: ٢٣/ ٢٤٢، والجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٨٧، والبحر المحيط: ٧/ ٥٢٨، وإرشاد العقل السليم: ٦/ ١١٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥/ ٣٩٠، وفتح القدير: ٣/ ٥٤٧، وغيرها من كتب التفسير.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٨٧، وإرشاد العقل السليم: ٦/ ١١٥، بتصرف.

وهو اليوم الذي يكون الملك فيه لله وحده –بخلاف أيام الدنيا التي مَلَّك الله فيها بعض الأمور إلى خلقه–، فيحكم سبحانه بين المؤمنين والكافرين، فيدخل المؤمنين جنات النعيم المقيم، وينتقم من الكافرين المكذبين بآياته، فيذيقهم العذاب المهين؛ يقول الله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الحج: ٥٧].

والمعنى: والذين أصروا على الكفر والتكذيب بآياتنا واستمروا في ذلك ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾. وعُبِّر باسم الإشارة للبعيد (أولئك) للإيذان ببعد منزلتهم في الكفر والتكذيب؛ أي: أولئك الموصوفون بما ذكر من الكفر والتكذيب. وتصديره بالفاء للدلالة على أن تعذيبهم إنما هو بسبب أعمالهم السيئة، كما أن تجريد خبر الموصول الأول عنه للإيذان بأن إثابة المؤمنين إنما هي بطريق التفضل لا لإيجاب الأعمال الصالحة إياها(١).

وقد دل سياق الآيات على أسباب استحقاقهم هذا العذاب المهين، وبيانه:

أولا: أنهم استهزءوا بوعيد الله تعالى، فاستعجلوا نزول عذابه بهم تهكما وسخرية:

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج: ٤٧].

وفي الآية إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم كان يخوِّفهم بالعذاب إن استمروا على كفرهم وتكذيبهم، فاستعجلوه استكبارا واستهزاء وسخرية، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يديم تخويفهم وإنذارهم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الحج: ٤٩]، وكأن المعنى: لا يصدنك ما يكون منهم من استعجال العذاب –استهزاء وسخرية وتهكما– عن إدامة تخويفهم وإنذارهم.

وقد جاء استعجالهم نزول العذاب بهم مفصلا في آيات أخر، منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ

(١) إرشاد العقل السليم: ٦/ ١١٥، ١١٦. بتصرف، وزيادة.

﴿ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٦﴾ [ص: ١٦] .

ثانيا: أنهم استهانوا بآيات الله عز وجل، فاستعلوا عليها واستكبروا وسعوا فيها معاجزين:

يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٥١﴾ [الحج: ٥١].

والسعي يكون في الصلاح ويكون في الفساد؛ يقال: سعى في أمر فلان، إذا أصلحه، أو أفسده بسعيه[١]. لكنه ههنا مستعمل في الفساد بقرينة قوله تعالى: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾، فمعنى ﴿سَعَوۡاْ﴾: "تحيَّلوا وكادوا"[٢].

ومعنى ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: معانِدين[٣]، فصدوا عنها، وكذبوا بها؛ فسموها سحرا، وشعرا، وأساطير الأولين، أو "ظانِّين أنهم يعجزوننا؛ لأنهم ظنوا أنهم لا يُبعثون وأنه لا جنةَ ولا نارَ"[٤]، "يقال عاجزته، أي: طمعت في إعجازه"[٥]، وقرئت (مُعَجِّزين) بدون مد وبتشديد الجيم[٦]، وتأويلها: أنهم اجتهدوا في تعجيز المؤمنين وتثبيطهم عن الإيمان بالآيات[٧]. وهذا كله لا يكون إلا عن استكبار واستعلاء، واستهانة بأمر الدين كله.

ثالثا: أنهم أعرضوا عن الحق استكبارا واستعلاء:

حيث لم يتعظوا بمصائر المكذبين من قبلهم؛ مع تحذيرهم وتخويفهم، ووضوح الآيات وجلائها؛ يقول الله تعالى في تخويفهم وتحذيرهم: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ٤٥﴾ [الحج: ٤٥].

---

(١) الكشاف: ٣/ ١٦٣، ولسان العرب: ١٤/ ٣٨٥، مادة (سعي).
(٢) المحرر الوجيز: ٤/ ١٢٨.
(٣) معاني القرآن للفراء: ٢/ ٢٢٩.
(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٣/ ٤٣٣.
(٥) التفسير الكبير: ٢٣/ ٢٣٥.
(٦) هي قراءة ابن كثير وأبى عمرو، وقرأ بقية العشرة: بالمد وتخفيف الجيم، يراجع: النشر في القراءات العشر لابن الجزري: ٢/ ٣٢٧.
(٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٣/ ٤٣٣، معاني القرآن للفراء: ٢/ ٢٢٩، والمحرر الوجيز: ٤/ ١٢٨، والتفسير الكبير: ٢٣/ ٢٣٥.

ويقول الله تعالى في التشنيع عليه؛ إذ صموا آذانهم وعطلوا عقولهم، وتعاموا عن الحق: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج: ٤٦].

ويؤكد الله تعالى تخويفهم وتحذيرهم أيضا، فيقول: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحج: ٤٨].

وما كان إعراضهم هذا مع وضوح الحجج، وقيام البراهين الساطعة، وتكرر الإنذار والتخويف، إلا استكبارا واستعلاء على الحق.

ولما كان هذا حالهم وتلك فِعالهم لا جرم قضى الله تعالى عليهم بالعذاب المُذل المُخزي المُحقِّر في الآخرة على رؤوس الأشهاد، جزاء وفاقا، فسبحان الملك الحَكَمِ العَدْلِ!!.

*****

الموضع الثامن

الاستهانة بالله عز وجل، وبالأنفس التي كرمها، وبالأعراض التي صانها

يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠].

وردت هذه الآيات الكريمة في سياق آياتٍ يمدح الله تعالى فيها عباده (عباد الرحمن) بصفات عظيمة جليلة، بدأها سبحانه وتعالى بمدحهم بالتحلي بأمهات الطاعات، ثم ثنى سبحانه في هذه الآيات بمدحهم بالتخلي عن أمهات المعاصي التي كانت ملازمة لقومهم من المشركين، فتنزهوا عنها بسبب إيمانهم، وهي: تنزههم عن الشرك، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والزنا.

وتوعد الله سبحانه وتعالى من يفعل هذه المعاصي بمضاعفة عذابه يوم القيامة، وخلوده فيه ذليلا مُخْزَىً مُسْتَحْقَرًا.

وعلى هذا الوعيد وأهله وأسبابه يقتصر الحديث هنا، دون الدخول في الكلام على مدح عباد الرحمن بالتخلي عن تلك المعاصي، فلهذا مقام آخر غير هذا.

ولا ريب أن هذا الوعيد خاص بالمشركين ومن ماثلهم من أهل الكفر، فهم المتوعدون على فعل هذه الكبائر الثلاث بالخلود في العذاب المهين، وليس المقصود العصاة من المؤمنين، وإن وقع منهم القتل والزنا[1]، وإن سيق الوعيد ضمن آياتٍ تمدحهم وتثني عليهم؛ وذلك بدلالة ظاهر الآيات، وسبب النزول.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر، ويحتاج حمله إلى دليل، والله أعلم"[2].

(١) الذي عليه أهل السنة والجماعة أن أهل الكبائر من المؤمنين غير مخلدين في نار جهنم، نص على ذلك القرآن والسنة، بأدلة كثيرة تراجع في مواضعها.
(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٨٠.

قلت: أما دلالة ظاهر الآيات:

فقوله تعالى: ﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾؛ إذ المعنى: يُكَرَّر عليه العذاب يوم القيامة، ويُغَلَّظُ، بلا انقطاع، كما كان يضاعِفُ سيئاته في الدنيا(١)، وهذا مرتب على خلوده في جهنم. والمؤمن العاصي لا يُكَرَّر عليه العذاب، ولا يُغَلَّظُ؛ لأنه لا يخلد فيها؛ فضلا من الله تعالى وكرما.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾، والمؤمن العاصي لا يخلد في نار جهنم، ولا يُهان فيها، وإنما يمحصه الله تعالى، ثم يدخله الجنة بفضله.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ ﴾؛ لأن قوله: (وآمن) دليل ظاهر على أن المقصود بهذا الوعيد غير المؤمنين.

وأما دلالة سبب النزول:

فقد أخرج البخاري ومسلم واللفظ له من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: **(أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ)** قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: **(أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ)** قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: **(أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ)** فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ تَصْدِيقَهَا: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٨](٢).

وأخرج مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ قَتَلُوا فَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا فَأَكْثَرُوا، ثُمَّ أَتَوْا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو لَحَسَنٌ، وَلَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً، فَنَزَلَ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٨]، وَنَزَلَ: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣](٣).

---

(١) نظم الدرر: ١٣/ ٤٢٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٦/ ١٢٦، بتصرف.

(٢) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر): ٦/ ١٠٩، ح(٤٧٦١)، ومسلم في صحيحه: كتاب: الإيمان، باب: كون الشرك أقبح الذنوب: ١/ ٩١، ح(٨٦)، واللفظ له.

(٣) الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله: ١/ ١١٣، ح(١٢٢).

وبناء عليه: فالمتوعدون في هذه الآيات الكريمة هم أهل الكفر بالله تعالى، الذين جمعوا تلك الكبائر، حسبما يتضح فيما يأتي.

وقد دلت الآيات على أسباب استحقاقهم هذا العذاب المهين، وبيانه:

أولا: أنهم استهانوا بالله عز وجل، واستكبروا عليه، حين أشركوا معه سبحانه غيره!!:

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾:

والمعنى: والذين لا يشركون مع الله سبحانه أحدا، وإنما يوحدونه ويخلصون له العبادة.

فإن من أشرك مع الله تعالى إلها آخر فقد استهان به سبحانه؛ لأنه تَنَقَّصَه عز وجل. واستكبر على طاعته تعالى؛ لأنه صرف خالص حقه تعالى إلى غيره، وعدل غيرَه سبحانه به؛ ولهذا قضى الله تعالى بعدم مغفرته لمن لقيه مشركا به؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾ [النساء/٤٨].

ثانيا: أنهم استهانوا بحرمة النفس التي حرم الله تعالى قتلها إلا بالحق، فقتلوها بغير حق!!:

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾:

والمعنى: ولا يقتلون النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه؛ مبالغة في التحريم(١).

ومعنى ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: لا يقتلونها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق، و(الحق) الذي تُقتل به النفوس هو: قتل النفس، والكفر بعد الإيمان، والزنا بعد الإحصان، والكفر الذي لم يتقدمه إيمان في الحربيين(٢). وكل ذلك موكول تنفيذه لولي الأمر، لا إلى الأفراد أو الجماعات.

(١) يراجع: إرشاد العقل السليم: ٦/ ٢٢٩، التحرير والتنوير: ١٩/ ٧٣.
(٢) يراجع: جامع البيان: ١٩/ ٣٠٣، وتأويلات أهل السنة: ٨/ ٤٣، والمحرر الوجيز: ٤/ ٢٢٠، والدر المصون: ٨/ ٥٠٢، وإرشاد العقل السليم: ٦/ ٢٢٩، وفتح القدير: ٤/ ١٠٢، وغيرها من كتب التفسير.

ولا يخل زمان من أولئك الذين لا يعرفون للنفس الإنسانية حرمة، وقد كان المشركون كذلك، إذ كان القتل متفشيا فيهم لأتفه الأسباب، بالعصبيات، والعداوات، والغارات، ووأد البنات ... الخ.

وقد حرم الله تعالى الاعتداء على النفس في كل الشرائع السماوية؛ يقول الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، ويقول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥].

ثالثا: أنهم استهانوا بحرمة الأعراض، فدنسوها حين استحلوا الزنا!!:

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾:

وهؤلاء أيضا لا يخل منهم زمان، وقد كان كثير من المشركين مكبين على الزنا، يستهينون بالفروج، ولا يعرفون لها حرمة، فيستحلونها بغير نكاح، ولا ملك يمين.

رابعا: وتمام ذلك كله: إصرارهم على تلك الكبائر حتى الموت:

يدل على ذلك:

- التعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿لَا يَدْعُونَ﴾، و﴿وَلَا يَقْتُلُونَ﴾، و﴿وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾، فإنه يدل على إدامة هؤلاء المتوعدين بالعذاب فعلَ ذلك، وتجدده منهم تجددا يشي بالإصرار عليه، ولهذا توعدهم الله تعالى بالخلود في العذاب المضاعف المهين.

- والاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٧٠]. فإنه يدل على أن هذا العقاب خاص بالمُصِرِّين عليه حتى الممات؛ لأن الآية تدل على أن من رجع عن فعل هذه الكبائر، ولم يصر عليها، وآمن بالله تعالى وعمل الصالحات، فإن الله تعالى يتوب عليه، ويغفر له، ويزيده من فضله، فيبدل سيئاته حسنات.

ولما كان أولئك المشركون وكل من ماثلهم من الكفار قد بلغوا في الإثم هذا المبلغ الخطير، حتى استهانوا بكل الحرمات –توعدهم الله تعالى وعيدا شديدا؛ **فقال سبحانه:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾

والتعبير بأسلوب الشرط لإفادة عموم هذا الوعيد لكل من فعل تلك الكبائر مجتمعة، ثم مات على ذلك، وللإشعار بتحقق الجزاء بتحقق الشرط، لإفادة التوكيد.

والإشارة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾: إلى مجموع ما تقدَّم من الشرك بالله تعالى، وقتل النفس بغير حق، والزنا؛ لأنه بمعنى: "ومن يفعل ما ذُكِر"، فلذلك وُحِّدَ. والمعنى: ومن يفعل جميع ما ذكر؛ من الإشراك بالله تعالى، وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، والزنا، كما هو دأب المشركين والكفرة(١).

﴿يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾: هذا هو جواب الشرط، والأثام: العقاب، وهو جزاء الإثم، والإثم: الذنب، وقد أثِم الرجل بالكسر يأثَم إثمًا، إذا وقع في الإثم. وقيل: الأثام: الإثم، وهو على حذف مضاف، أي: يلق جزاء أثام(٢).

والتنوين للتعظيم، أي: يلق في الآخرة عقابا شديدا لا يقادر قدره.

وقوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾:

بدل من ﴿يَلْقَ﴾؛ لأن تضعيف العذاب والخلود هو لقاء الأثام، فأبدل منه، وهذا على القراءة بالجزم، وهي قراءة الجمهور، وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: (يضاعَفُ) بالرفع(٣)؛ على أنه مستأنف، كأنّ قائلا قال: ما لقيُّ الأثام؟ فقيل: يضاعَفُ له العذاب، أو في محل نصب على الحال(٤).

(١) يراجع: جامع البيان: ١٩/ ٣٠٣، والتفسير الوسيط للواحدي: ٣/ ٣٤٦، والمحرر الوجيز: ٤/ ٢٢٠، والتسهيل لعلوم التنزيل: ٢/ ٨٦، والبحر المحيط: ٨/ ١٣٠، والدر المصون: ٨/ ٥٠٢.وإرشاد العقل السليم: ٦/ ٢٢٩، وغيرها من كتب التفسير.

(٢) يراجع: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٤/ ٧٦، والكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد للهمداني: ٥/ ٣٦، والبحر المحيط: ٨/ ١٣٠، والدر المصون: ٨/ ٥٠٢، ٥٠٣.

(٣) يراجع: السبعة لابن مجاهد: ص٤٦٧، والنشر في القراءات العشر: ٢/ ٣٣٤.

(٤) يراجع: إعراب القرآن للنحاس: ٣/ ١١٧، والكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد للهمداني: ٥/ ٣٦، ٣٧، ومشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب: ٢/ ٥٢٦.

والمعنى: يُكَرَّر عليه العذاب يوم القيامة، ويُغَلَّظُ، بلا انقطاع، كما كان يضاعِف معاصيه في الدنيا ويصر عليها[1].

ولما دل اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾: على مجموع ما تقدَّم من الشرك بالله تعالى، وقتل النفس بغير حق، والزنا؛ دل على أن التضعيف أيضا مرتب على مجموع هذه المعاصي، لا على كل واحد منها[2]. هذا هو الظاهر والله أعلم.

ولعل في النص على أن ذلك العذاب يكون (يوم القيامة)، مع أنه هو الظاهر من الوعيد: التأكيد على شدة هذا الوعيد والتخويف منه؛ بالنص على أنه يكون يوم القيامة؛ يوم الحسرة والندامة، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم.

وليكون في ذكره قرع لأسماع أولئك المشركين، الذين طالما أنكروه وجحدوه؛ ليعلموا أن يوما آخِرًا ينتظرهم، هو يوم القيامة، يُجْمَع عليهم فيه هذا العذابُ المضاعف الذي يُذل نفوسهم، ويكسر أنوفهم، التي لم يردعها يوما رادع، أو يمنعها مانع.

ولا يخفى ما في التعبير بـ (له) في قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ من التهكم الظاهر بهم؛ لأن (له) إنما تستعمل في الثواب لا في العقاب.

وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾:

(مهانا) حال، وهو اسم مفعول من أَهانه يُهِيْنُه، أي: أذلَّه وأَذاقه الهوان، فهو ذليل مستحقَر[3]، وقد جاءت الإهانة ههنا وصفا للمعذَّب لا وصفا للعذاب؛ مبالغة في الوعيد، وزيادة في النكال.

وهو معطوف على قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

والتعبير بالمضارع (يَخْلُدْ) –إضافة إلى ما يحمله من معنى البقاء في النار أبدا– يدل على استمرار خلوده وتجدده، مناسبة لاستمراره وإصراره في الدنيا على معصيته.

(١) نظم الدرر: ١٣/ ٤٢٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٦/ ١٢٦، بتصرف.
(٢) مستفاد من: البحر المحيط: ٨/ ١٣٠، والدر المصون: ٨/ ٥٠٢.
(٣) الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: ٥/ ٣٧، والدر المصون: ٨/ ٥٠٤.

وفي تقديم الجار والمجرور (فيه) إشارة إلى تخصيص أولئك المجرمين بهذا العذاب دون غيره، وقصره عليهم؛ إمعانا في إذلالهم وتحقيرهم وخزيهم.

كما أن في قراءة ابن كثير وحفص عن عاصم بصلة الهاء بياء في (فيه) هكذا (فيهي)[1]، إشارة إلى شدة هذا الوعيد وطوله عليهم؛ قال النسفي: "وإنما خَصَّ حفص الإشباع بهذه الكلمة مبالغة في الوعيد، والعرب تمد للمبالغة"[2].

وهكذا توعدهم الله تعالى بالعذاب المضاعف يوم القيامة، وبخلودهم فيه مهانين؛ لأن كفرهم بالله تعالى لم يكن جحودا مجردا، وإنما كان باستباحة كل الحرمات، والاستهانة بها، ابتداء بالذات الإلهية المقدسة، حين أشركوا مع الله تعالى غيره؛ ومرورا بانتهاك حرمة النفس الإنسانية التي كرمها الله تعالى وأعلى شأنها، حين استباحوا قتلها بغير حق، وانتهاء بالاستهانة بحرمات المجتمع، المتمثلة في الأعراض والأنساب؛ حين استباحوها بالزنا؛ فكان العقاب من جنس العمل؛ ذُلا وخزيا واحتقارا، وفضيحة على رؤوس الأشهاد!!. ليجتمع عليهم عذاب الجسد، وعذاب النفس، نكالا من الله تعالى، جزاء وفاقا.

** **هذا**، وقد لاحظت في هذا الموضع فرائد لم أجدها في غيره من المواضع الأخرى:

أولها: النص على مضاعفة العذاب، وثانيها: النص على أن هذا العذاب يكون يوم القيامة، وثالثها: النص على الخلود فيه، ورابعا: مجيء الإهانة وصفا للمُعَذَّب لا للعذاب.

ولعل السر في ذلك هو فداحة تلك الجرائم التي ترتب عليها هذا العقاب، إذ إنها جمعت أكبر الكبائر، ولا يجمعها إلا من اشتد كفره، وتردَّى به إلى هوة سحيقة، حتى بلغ به فجوره إلى حد الاستهانة بالله تعالى، والاستهانة بالنفس الإنسانية، وبالمجتمع كله، واستمرأ ذلك، وأصر عليه حتى مات!!!

(١) قرأ ابن كثير بصلة الهاء بياء في (فيه مهانا)، ووافقه حفص عن عاصم هنا خاصة، مخالفا أصله، والباقون يختلسون كسرتها. يراجع: السبعة في القراءات: ص٤٦٧، وتحبير التيسير في القراءات العشر لابن الجزري: ص: ٤٨٦.
(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٢/ ٥٥٠.

**** تتمة لابد منها:**

ولجزيل فضل الله تعالى وفيض عطائه ومَنِّه وكرمه طمأن عباده، وفتح لهم باب التوبة، فضلا مِنه وكرما، فقال تعالى مرغبا في الرجوع إلى ساحة عفوه ومغفرته:

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وهو استثناء من العموم الذي أفادته (مَنْ) الشرطية في قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ٦٨]. والمعنى: لكن من رجع عن هذه الآثام وآمن وعمل الصالحات فأولئك يبدل الله سيئاتهم التي اقترفوها من الشرك والقتل والزنا حسنات.

قال القرطبي: "ولا يبعد في كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد أن يضع له مكان كل سيئة حسنة"(١).

فالمعنى: أن الله تعالى يكرمهم في الآخرة فيجعل مكان السيئات حسنات؛ ففي صحيح مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لا أَرَاهَا هَا هُنَا) فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ**(٢).

قال الإمام الطيبي: "فهذه معاملة الله عز وجل مع من هو آخر الناس خروجاً من النار، فكيف بالمؤمن التائب الآتي بالأعمال الصالحة؟ ... فلا يبعد من حيث الدليل أن يثبت الله لهم مكان السيئات حسنات ... ويؤيده قوله: ﴿وَكَانَ

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٧٨، ويراجع: التسهيل لعلوم التنزيل: ٢/ ٨٧، وحاشية الطيبي على الكشاف (فتوح الغيب): ١١/ ٢٩٤، ٢٩٥.

(٢) الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها: ١/ ١٧٧، ح(٣١٤).

﴿ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٧٠]، ﴿غَفُورًا﴾: أي واسع المغفرة؛ حيث حط عنهم بالتوبة والإيمان مضاعفة العذاب، والخلود في النار والإهانة. ﴿رَّحِيمًا﴾: أي كثير الرحمة؛ حيث بدل سيئاتهم بالثواب الدائم، والكرامة في الجنة"(١).

****

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (فتوح الغيب): ١١/ ٢٩٥، بتلخيص واختصار.

الموضع التاسع

الاستهانة بدين الله، والصد عنه، والاستهزاء به، والاستكبار على آياته، والاستهانة بها

يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ ﴾ [لقمان: ٦].

التفسير والبيان:

وردت هذه الآية الكريمة في صدر سورة لقمان، وهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ ﴾ [لقمان: ٢].

لما ذكر الله تعالى حال السعداء، الذين يهتدون بكتابه الحكيم، فيأتمرون بأمره، وينتهون بنهيه، وأثنى عليهم فسماهم المحسنين والمهتدين والمفلحين، أَتْبَعَ ذلك بذكر حال الأشقياء، الذين اختاروا الكفر على الإيمان، ليضلوا عن دين الله ويتخذوه هزوا؛ وتوعدهم بالعذاب المهين.

قال الفراء: وللعرب في شَرَى واشْتَرَى مذهبان: والأكثر منهما أن يكون شَرَى: باع، واشْتَرَى: ابتاع، وربما جعلوهما بمعنى باع[1].

واللهو: كل باطل شغل الإنسان عن الحق والخير، وعمّا يعنيه ويهمّه[2].

* وقد اختلف المفسرون في المراد بالاشتراء وباللهو ها هنا:

– فقال بعضهم: الاشتراء على حقيقته، أي دفع الثمن[3].

واختلفوا في المراد باللهو: فقيل: المراد به الغناء وأشباهه، وهو قول أكثر المفسرين[4]؛ وقيل: المراد به المُغنِّي والمُغنِّية، كانوا يشترونهم ليتلهوا بهم ويلعبوا[5]، ويكون التقدير: ومن الناس من يشتري أهل لهو الحديث. أخرج الترمذي في سننه عن أبي أُمَامَةَ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(لا**

(١) معاني القرآن للفراء: ١/ ٥٦. بتصرف يسير.
(٢) الكشاف: ٣/ ٤٩٠، والمفردات في غريب القرآن: ص٧٤٨.
(٣) يراجع: جامع البيان: ٢٠/ ١٢٧، والتفسير البسيط للواحدي: ١٨/ ٩٢، ٩٣، وغيرهما.
(٤) روي عن ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد وعكرمة رضي الله عنهم، يراجع: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: ٩/ ٣٠٩٦، والتفسير البسيط للواحدي: ١٨/ ٩٤، والمحرر الوجيز: ٤/ ٣٤٥، وزاد المسير: ٣/ ٤٢٩، ٤٣٠، والجامع "لأحكام القرآن: ١٤/ ٥٣، وفتح القدير: ٤/ ٢٧٠، وغيرها من كتب التفسير.
(٥) المصادر السابقة: نفس المواضع.

تَبِيعُوا القَيْنَاتِ، وَلا تَشْتَرُوهُنَّ، وَلا تُعَلِّمُوهُنَّ، وَلا خَيْرَ فِي تِجَارَةٍ فِيهِنَّ، وَثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ)، فِي مِثْلِ هَذَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ [لقمان: ٦] إِلَى آخِرِ الآيَةِ[(١)].

وقيل: كان أحدهم يشتري ويكتب عن لهو الحديث وباطله من أحاديث الأعاجم، فيُحَدِّث بها قريشًا، ويقول: إن محمدا يحدثكم بأحاديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بأحاديث فارس والروم[(٢)]؛ فذلك اشتراؤه لهو الحديث وإضلاله الناس عن سبيل اللَّه.

– وقال بعضهم: الاشتراء ليس على حقيقته، وإنما معناه: الإيثار والاختيار[(٣)]؛ على حد قوله تعالى: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ** ﴾ [البقرة: ١٦]، أي: اشتروا الكفر بالإيمان، أي: استبدلوه منه واختاروه عليه، والاشتراء: مبادلة، أخذ وإعطاء، وهؤلاء آثروا واختاروا الضلال مع قبحه على الهدى مع حسنه؛ فسماه الله تعالى: شراء لذلك[(٤)].

قال قتادة: "اشتراؤه: استحبابه، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحقّ، وما يضرّ على ما ينفع"[(٥)].

---

(١) الحديث: أخرجه الترمذي في سننه: في أبواب البيوع، باب: ما جاء في كراهية بيع المغنيات: ٣/ ٥٧١، ح(١٢٨٢). وقال: "حديث أبي أمامة غريب إنما نعرفه مثل هذا من هذا الوجه، وقد تكلم بعض أهل العلم في علي بن يزيد وضعفه وهو شامي". وأخرجه أحمد في مسنده: ٢٦/ ٦١١، ٦١٢، ح(٢٢٢٨٠) وقال محققه: إسناده ضعيف جدا.

(٢) روي عن الكلبي ومقاتل، يراجع: التفسير البسيط للواحدي: ١٨/ ٩٢، ٩٣، ومعالم التنزيل: ٣/ ٥٨٤، والكشاف: ٣/ ٤٩٠، والمحرر الوجيز: ٤/ ٣٤٥، وزاد المسير: ٣/ ٤٢٩، ٤٣٠، وغيرها من كتب التفسير.

(٣) روي عن قتادة والحسن، يراجع: جامع البيان: ٢٠/ ١٢٦، ١٢٧، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: ٩/ ٣٠٩٦، وبحر العلوم للسمرقندي: ٣/ ٢١، والكشاف: ٣/ ٤٩٠، والمحرر الوجيز: ٤/ ٣٤٥، وزاد المسير: ٣/ ٤٢٩، ٤٣٠، والجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٥٣، والبحر المحيط: ٨/ ٤٠٩، وغيرها من كتب التفسير.

(٤) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة): ٨/ ٢٩٧.

(٥) جامع البيان: ٢٠/ ١٢٦، ١٢٧، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: ٩/ ٣٠٩٦.

وهو قول بعض أهل المعاني؛ قال يحيى بن سلام: "يعني يختار باطل الحديث على القرآن"(١). وقال الزجاج في قوله عز وجل: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٦]؛ ليس هنا شراء ولا بيع، ولكن رغبتهم فيه بتمسكهم به كرغبة المشتري بماله ما يرغب فيه، والعرب تقول لكل من ترك شيئا وتمسك بغيره قد اشتراه(٢).

واختلفوا في المراد باللهو: فقيل: الباطل؛ قاله عطاء، وقيل: الشرك بالله تعالى، قاله الضحاك وابن زيد، وقيل: كل ما ألهى عن الله تعالى؛ قاله الحسن، وقيل: الجدال في الدين والخوض في الباطل؛ قاله سهل بن عبد الله(٣).

هذا مجمل ما ذكره المفسرون في المراد بالاشتراء واللهو ها هنا.

والأولى -والله أعلم-: أن يكون الاشتراء هنا بمعنى الاختيار، وأن يكون اللهو بمعنى الكفر؛ هذا هو الذي يناسب السياق، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وهو ما أخرجه الطبري عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم(٤)، واختاره بعض المفسرين(٥).

فالآية في أهل الكفر، وليست في أهل الإيمان؛ لأنها تحدثت عن أناس يختارون لهو الحديث (الكفر) ليضلوا عن سبيل الله، وأنهم يفعلون ذلك استهزاء

---

(١) يراجع: التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه، ليحيى بن سلام: ص٢٤٧، والنكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام للقصَّاب: ٣/ ٧٢٤، والوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري: ص٨٠، ولسان العرب: ١٤/ ٤٢٧، ٤٢٨، مادة (شرى)، واختاره أبو حيان في البحر المحيط: ٨/ ٤٠٩.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١/ ٩٢، بتصرف.

(٣) يراجع: جامع البيان: ٢٠/ ١٣٠، والنكت والعيون: ٤/ ٣٢٨، وزاد المسير: ٣/ ٤٣٠.

(٤) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هؤلاء أهل الكفر، ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ [لقمان: ٧]، فليس هكذا أهل الإسلام، قال: وناس يقولون: هي فيكم وليس كذلك، قال: وهو الحديث الباطل الذي كانوا يلغون فيه. يراجع: جامع البيان: ٢٠/ ١٣٠.

(٥) قالوا: الراجح أن الآية نزلت في لهو حديث مضاف إلى الكفر بالدين والاستخفاف به؛ فلذلك اشتدت ألفاظ الآية؛ يقول تعالى: ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [لقمان: ٦]، وتوعدهم بالعذاب المهين. يراجع: المحرر الوجيز: ٤/ ٣٤٦، والتسهيل لعلوم التنزيل: ٢/ ١٣٧، والبحر المحيط: ٨/ ٤١٠.

بالدين، وأن الله تعالى توعدهم بالعذاب المهين في الآخرة، وهذه الأحوال لا تكون إلا من أهل الكفر، وذلك الوعيد لا يكون إلا لهم. والله أعلم.

ويكون المعنى: ومن الناس من يختار أو يستحب الكفر على الإيمان، ..... الخ.

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا ﴾ [الأنعام: ٧٠]، حيث سمى الله تعالى كفرهم لعبا ولهوا، والآية تهديد ووعيد من الله تعالى لأولئك المشركين، وفي معناها قولان: "الأول: وذر الذين اتخذوا لعبا ولهوا دينا؛ على التقديم والتأخير. والثاني: وذر الذين اتخذوا اللعب واللهو دينهم، ثم هو يُخَرَّج على وجوه:

أحدها: اتخذوا دينهم عبادةَ ما لا ينفع ولا يضر، ولا يبصر ولا يسمع ولا يعلم، ومَنْ عَبَدَ مَنْ هذا وصفه، واتخذ ذلك دينا – فهو عابث لاعب.

والثاني: اتخذوا دينهم ما هوته أنفسهم، ودعتهم الشياطين إليه، ومن اتخذ دينه بهوى نفسه، وما دعته نفسه إليه – فهو عابث لاعب.

والثالث: صار دينهم لعبًا وعبثًا؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث، ومن لم يقصد بدينه الذي دان به عاقبة فهو عابث مبطل"(١).

وقد دلت الآية على أسباب استحقاقهم هذا العذاب المهين، وبيانه:

أولا: أنهم جحدوا دين الله تعالى واستهانوا به، حين اختاروا الكفر مع ظهور قبحه على الإيمان مع ظهور حسنه:

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾.

ونلمس ذلك في التعبير بالاشتراء: وذلك للتسجيل عليهم بأنهم كانوا راغبين في ذلك، عالمين تمام العلم، راضين تمام الرضا بما يختارون وما يذرون؛ لأن المشتري سلعة لا يختارها –غالبا– إلا بعد فحص ومعاينة، ليتحقق له تمام العلم والرضا بما اشترى.

ونلمسه أيضا في التعبير باشترائهم (لهو الحديث)، دون التعبير ببيعهم الإيمان: وذلك للدلالة على أن حرصهم على اختيار الكفر كان أسبق في

(١) تأويلات أهل السنة: ٤/ ١٢٠، باختصار.

نفوسهم، وأعلق بقلوبهم، وهذا دليل على استهانتهم بدين الله تعالى، وعدم مبالاتهم به!!!.

ولهذا سمى الله تعالى كفرهم ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾؛ لأنه لا يعدو أن يكون عبثا من القول، لما كانوا يظهرونه من الاستهانة بدين الله تعالى وبكتابه الكريم؛ فهم الذين سموه سحرا، وأساطير الأولين .... الخ.

ثانيا: أنهم بالغوا في جحودهم دين الله والاستهانة به، حين لم يكتفوا بكفر أنفسهم، بل تجاوزوا ذلك إلى غيرهم ليصدوهم عن دين الله؛ عتوا واستكبارا:

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾:

أي: ومن الناس من يختار الكفر على الإيمان ليصد الناس ويُبعدهم عن دين الإسلام، أو عن القرآن(١)، فلم يكن كفرهم جحودا مجردا منتهيا عند أنفسهم، بل تجاوزوا ذلك إلى صد غيرهم عن دين الله، وهذا عتو واستكبار، واستهانة بدين الله تعالى، وعدم مبالاة به.

ويأتي قوله تعالى:﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ليؤكد جحودهم واستهانتهم، أي أنهم اختاروا الكفر على الإيمان بغير علم في معتقدهم أن اختيارهم هذا حق، فلم يكن لديهم علم –وأنى لهم– بأفضلية الكفر على الإيمان حين اختاروه، وإنما كانوا عالمين بأحقية الإيمان وبقبح الكفر وفساده، ومع ذلك اختاروه!!!.

وفي قراءة الجمهور (ليُضِل) بضم الياء، دليل على سعيهم في إضلال غيرهم، إذ المعنى: ليُضِل غيره –بعد ما ضل هو– عن دين الله، إذ لم يكتف لنفسه بالكفر حتى أخذ يبث ضلاله للناس، ليصدهم عن دين الله. وفي قراءة ابن كثير وأبي عمرو (ليَضِل) بفتح الياء(٢)، دليل على إضلالهم أنفسهم؛ إذ المعنى: ليستمر على ضلاله، ويزداد ضلالا(٣).

ثالثا: أنهم فعلوا ذلك استهزاء بالدين وسخرية منه:

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾:

---

(١) جامع البيان: ٢٠/ ١٣٠، وتفسير السمعاني: ٤/ ٢٢٦، والكشاف: ٣/ ٤٩١، والبحر المحيط: ٨/ ٤١٠.

(٢) يراجع: النشر في القراءات العشر: ٢/ ٢٩٩.

(٣) يراجع: توجيه القراءتين في: الكشاف: ٣/ ٤٩١، والمحرر الوجيز: ٤/ ٣٤٦، والبحر المحيط: ٨/ ٤١٠.

بالنصب عطفا على (يَضِل)، وبالرفع عطفا على (يشتري)، فيكون من جملة صلة (مَنْ)[1]، والضمير المنصوب يعود على (سبيل الله)، فإنه مما يذكَّر ويؤنث[2]، وهو دين الإسلام أو القرآن، أي: ويتخذ دين الله أو القرآن سخرية واستهزاءً[3]، وهذا أدخل في الكفر، وأعرقُ في الضلال، وهي عادة الكفرة وأهل النفاق.

وفي التعبير بالمضارع (يشتري)، و(ليضل)، (ويتخذها)، إشارة إلى تجدد ذلك منهم تجددا يشي بالإصرار على هذا الكفر!!.

ولما كانت هذه أحوالهم وتلك جناياتهم عاقبهم الله تعالى بالفضيحة والإذلال والامتهان في الآخرة؛ جزاء لأعمالهم في الدنيا؛ **فقال تعالى:** ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾ [لقمان: ٦].

﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَن﴾، والجمع باعتبار معناها، كما أن الإفراد في الفعلين باعتبار لفظها، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الكفر، أي: أولئك الأباعد الموصوفون بما ذكر من اختيار الكفر على الإيمان، وصدهم غيرهم عن دين الله، واتخاذهم دين الله هزوا: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾ أي: لهم في الآخرة عذاب مذل مخز؛ جزاء وفاقا؛ لما فعلوه في الدنيا من جحودهم دين الله، واستهانتهم به، وإيثارهم الكفر عليه، وصدهم الناس عنه، واستهزائهم به وسخريتهم منه.

رابعا: أنهم استكبروا على آيات الله استكبارا شديدا، واستهانوا بها استهانة بالغة:

يدل على ذلك قوله تعالى في الآية التالية: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ [لقمان: ٧].

وهو معطوف على الآية السابقة، بيانا لحال أخرى من أحوال هذا الفريق المجرم من الناس.

(١) قرأ يعقوب وحمزة والكسائي وخلف وحفص (ويتخذَها) بالنصب، وقرأ الباقون بالرفع. يراجع: النشر في القراءات العشر: ٢/ ٣٤٦.
(٢) يراجع: الدر المصون للسمين الحلبي: ٩/ ٦١.
(٣) التحرير والتنوير: ٢١/ ١٤٣.

والوَقْرُ بفتح الواو: الصَّمَم[1]، وقيل: ثِقَل السمع في الأُذن[2]، والأول: أنسب بسياق الآيات، والمعنى: كأن في أذنيه صمما.

بيَّن الله تعالى في هذه الآية الكريمة مدى استكبار هذا الفريق المجرم من الناس على كتابه الكريم، واستهانتهم به، وإعراضهم الشديد عنه. وقد تضمن هذا التعبير القرآني العظيم دلالات كثيرة على ذلك، منها:

– التعبير بأسلوب الشرط، إشارة إلى مقابلته آيات الله بالإعراض عنها والاستكبار عليها بمجرد تلاوتها عليه، فلا مجال في قلبه للتفكر أو النظر فيها!!.

– التعبير بالمضارع ﴿تُتْلَىٰ﴾: إشارة إلى تجدد تلاوة آيات الله عليه مع تجدد إعراضه، وفي بنائه للمجهول إشارة وقوع إعراضه واستكباره متى تليت عليه آيات الله في أي وقت، ومن أي أحد!!.

– التعبير بالماضي ﴿وَلَّىٰ﴾: إشارة إلى ثباته على تلك الحال من الإعراض؛ مهما تليت عليه آيات الله تعالى.

– التعبير بقوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾، بدل (استكبر) مجردا، للإشارة إلى سرعة استكباره وشدة إعراضه.

– التعبير بقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ بدل الاكتفاء بالدلالة على استكباره بقوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾، تشبيها لحاله بمن لم يسمع الآيات أصلا، مع أنه سمعها؛ إشارة إلى شدة استكباره، واستهانته بآيات الله!!!.

– التعبير بقوله تعالى: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ بعد قوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾، وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾: للدلالة على منتهى استكباره واستهانته بكتاب الله تعالى؛ فهو لا يريد أن يسمع الآيات، ولا أن يرعيها مجرد انتباهه، فضلا عن أن يعرضها على عقله أو قلبه؛ لفرط ما به من الجحود والاستكبار والاستهانة!!!.

والمعنى: وإذا تتلى على هذا الفريق المجرم من الناس آياتُ الكتاب الحكيم التي هي هدى ورحمة للمحسنين أعرض عنها إعراضا شديدا، موليا ظهره إياها،

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ص١٥٢، وبصائر ذوي التمييز: ١/ ٣٧٢.
(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/ ٢٣٦، والمفردات في غريب القرآن: ص٨٨٠.

مستكبرا على الإيمان بها، مستهينا بها، سادا أذنيه عن سماعها، جاعلا من نفسه أصم لا يسمع، كأن في أذنيه صمما يمنعه من سماعها؛ مع أنه يسمعها تمام السماع؛ يصنع هذا استكبارا وتجبرا واستهانة بكتاب الله عز وجل!!!.

لأجل هذا... توعده الله تعالى بالعذاب الأليم، أي: البالغ في الألم مبلغا عظيما، وعبر عن ذلك بالتبشير تهكما به، بعد أن توعده في الآية السابقة بالعذاب المذل المخزي.

وبهذا جمع الله عز وجل على ذلك الكافر الذي استهان بدين الله تعالى، فاختار الكفر عليه جحودا واستكبارا، وصد غيره عنه، واستكبر على كتابه الكريم، واستهان به، فأعرض عنه إعراضا شديدا – العذابَ الأليم جسديا، والعذابَ المهين نفسيا، والعياذ بالله تعالى.

****

الموضع العاشر

إيذاء الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم والاستعلاء عليهما

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

التفسير والبيان:

وردت هذه الآية الكريمة لبيان عقاب الله تعالى لأولئك الذين تجاسروا على إيذاء الله عز وجل، وإيذاء رسوله صلى الله عليه وسلم.

وجمهور المفسرين على أنها واردة في المشركين واليهود والنصارى، تهديدا ووعيدا شديدا لهم(١). قلت: ويدخل معهم المنافقون أيضا؛ لاشتراكهم معهم في كثير من الجرائم؛ ولأن كثيرا من آيات هذه السورة الكريمة في النعي عليهم، حتى لقد بالغ القرطبي –رحمه الله– فقال: "سورة الأحزاب مدنية في قول جميعهم، نزلت في المنافقين وإيذائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطعنهم فيه وفي مناكحته وغيرها"(٢).

وقد دلت الآية على أسباب استحقاقهم هذا العذاب المهين، وبيانه:

أولا: أن قصدوا الاستهانة بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، والاستعلاء عليهما:

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

والأذى: كُلُّ مَا تَأَذَّيْتَ بِهِ، وَهُوَ الشَّيْءُ تَتَكَرَّهُهُ وَلا تَسْتَقِرُّ عَلَيْهِ، يقال: أَذِيَ بِهِ أَذىً وتَأَذَّى: وَصَلَ المكروهُ إليه، وَقَدْ آذَيْتُه إِيذَاءً وأَذِيَّةً: أوصلتُ إليه الأَذَى(٣).

---

(١) يراجع: تأويلات أهل السنة: ٨/ ٤١١، ٤١٢، والبسيط للواحدي: ١٨/ ٢٩٠، ومعالم التنزيل: ٣/ ٣٦٣، والكشاف: ٣/ ٥٥٩، والمحرر الوجيز: ٤/ ٣٩٨، وزاد المسير: ٣/ ٤٨٢، والجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٢٣٧، ولباب التأويل: ٣/ ٤٣٦، وفتح القدير: ٤/ ٣٤٧، وغير ذلك من كتب التفسير.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ١١٣.

(٣) يراجع: مقاييس اللغة لابن فارس: ١/ ٧٨، وتهذيب اللغة للأزهري: ١٥/ ٣٩، ولسان العرب: ١٤/ ٢٧، مادة (أذي)س.

** والإيذاء مستحيل في حق الله عز وجل.

ولهذا ذهب جمهور المفسرون[1] إلى أن التعبير بالإيذاء مستعمل في حق الله تعالى مجازا في الكفر به تعالى، ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه سبحانه، ووصفه عز وجل بما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه.

قالوا: ومن ذلك قول اليهود: يد الله مغلولة، وقول النصارى: ثالث ثلاثة، والمسيح ابن الله، وقول المشركين: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه؛ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. ومنه أيضا: كفر المنافقين.

فمعنى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ ﴾: إن الذين يخالفون أمر الله، فيكفرون به، أو يشركون به، أو يصفونه بما هو منزه عنه سبحانه، ... الخ.

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)**[2].

قال ابن كثير: "ومعنى هذا أن أهل الجاهلية كانوا يقولون يا خيبة الدهر! فعل بنا كذا وكذا، فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله عز وجل، فنهى عن ذلك؛ هكذا قرره الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء رحمهم الله"[3].

وأخرج البخاري أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **(قَالَ اللَّهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي، كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ**

(١) يراجع: تأويلات أهل السنة: ٨/ ٤١١، ٤١٢، والبسيط للواحدي: ١٨/ ٢٩٠، ومعالم التنزيل: ٣/ ٣٦٣، والكشاف: ٣/ ٥٥٩، والمحرر الوجيز: ٤/ ٣٩٨، وزاد المسير: ٣/ ٤٨٢، والجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٢٣٧، ولباب التأويل: ٣/ ٤٣٦، وإرشاد العقل السليم: ٧/ ١١٤، وروح المعاني: ١١/ ٢٦٢، وفتح القدير: ٤/ ٣٤٧، وغير ذلك من كتب التفسير.

(٢) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: (وما يهلكنا إلا الدهر): ٦/ ١٣٣، ح(٤٨٢٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٤٢٣.

بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْئًا أَحَدٌ)[1].

وقيل: الإيذاء على حقيقته، وهو ليس في حق الله تعالى، والآية على حذف مضاف، والتقدير: "إن الذين يؤذون أولياء الله"[2]، وضعَّفه الآلوسي، ولم يذكر العلة[3].

قلت: لعلها من جهة المعنى؛ لأن ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير؛ ولأنه وإن صح لغة، فإنه لا يَجْمُل معنىً؛ لأن في ذكر الوعيد على إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم بإزاء الوعيد على إيذاء الله جل جلاله بيان لمنزلته صلى الله عليه وسلم وقدره عند ربه سبحانه.

** وأما الإيذاء في حق الرسول صلى الله عليه وسلم فهو على الحقيقة؛ وقد وقع فعلا[4].

فقد آذاه المشركون، فاتهموه بأنه: شاعر، وساحر، وكاهن، ومجنون، وكسروا رباعيته، وشجوا وجهه الكريم يوم أحد.

وآذاه اليهود فنقضوا عهده صلى الله عليه وسلم وكادوا له، وألّبوا عليه القبائل، وتحزَّبوا عليه مع المشركين.

وآذاه المنافقون في نفسه وأهله، وأعانوا عليه الأحزاب من المشركين واليهود؛ وراحوا يرجفون في المدينة، ويثبطون المسلمين؛ حتى إن أحدهم ليقول: "كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه

(١) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: (وامرأته حمالة الحطب): ٦/ ١٨٠، ح(٤٩٧٤).
(٢) يراجع: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٢٣٨، والبحر المحيط: ٨/ ٥٠٢، والدر المصون: ٩/ ١٤١.
(٣) يراجع: روح المعاني: ١١/ ٢٦٣.
(٤) يراجع: معالم التنزيل: ٣/ ٣٦٣، والكشاف: ٣/ ٥٥٩، والمحرر الوجيز: ٤/ ٣٩٨، وزاد المسير: ٣/ ٤٨٢، والجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٢٣٧، ولباب التأويل: ٣/ ٤٣٦، وإرشاد العقل السليم: ٧/ ١١٤، وروح المعاني: ١١/ ٢٦٢، وفتح القدير: ٤/ ٣٤٧، وغير ذلك من كتب التفسير.

أن يذهب إلى الغائط"[1]. وعظُم البلاء واشتدت المحنة؛ وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وابتلي المؤمنون، وزلزلوا زلزالا شديدا. .....

إلى آخر ما كان من إيذائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ جحودا واستهانة بدين الله تعالى.

وقد نص المحققون من المفسرين على أن هذه الآية عامة في كل إيذاء لله تعالى، ولرسوله صلى الله عليه وسلم؛ قولا أو فعلا[2].

هذا، وقد دلت الآية الكريمة على استهانتهم بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم واستعلائهم عليهما:

يدل على ذلك إيثار التعبير بلفظ الإيذاء: ﴿يُؤْذُونَ﴾ دون غيره، والذي يحمل في حقيقته معنى إيصال المكروه والإساءة إلى الغير، وذلك لا يكون إلا على سبيل الاستهانة والاحتقار لهذا الغير، والاستعلاء والاستكبار عليه؛ لأن الذي يؤذي غيره عامدا لا يؤذيه إلا ونفسه مملوءة بالاستهانة به والاستعلاء عليه.

ثانيا: أنهم يصنعون ذلك عامدين مُصِرِّين:

يدل على ذلك التعبير بالمضارع: ﴿يُؤْذُونَ﴾ دون الماضي، ليدل على أن إيذاءهم لله ولرسوله متجدد منهم تجددا يشي بالاستمرار والإصرار، وهذا التجدد والاستمرار منهم يدل على تعمدهم لهذا الإيذاء وإصرارهم عليه؛ يقوي ذلك تأكيد الخبر عن جناياتهم؛ حيث جاء الكلام مؤكدا بـ (إنَّ) واسمية الجملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

** ولما كانوا بهذه الاستهانة والاستعلاء على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم عاقبهم الله تعالى بالطرد من رحمته في الدنيا والآخرة، وجعل عذابهم في الآخرة مهينا، كسرا لأنوفهم التي استعلت على الله ورسوله، وإذلالا وتحقيرا لنفوسهم التي استهانت بالله وبرسوله؛ ليكون الجزاء من جنس العمل؛ **يقول الله تعالى:**

﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾.

(١) السيرة النبوية لابن كثير: ٣/ ٢٠١.
(٢) يراجع: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٦/ ٤٢٤، وإرشاد العقل السليم: ٧/ ١١٤، وروح المعاني: ١١/ ٢٦٢، وفتح القدير: ٤/ ٣٤٧، ٣٤٨.

واللعن من الله تعالى: الطرد والإبعاد من رحمته عز وجل[١]. وهو أشد أنواع العقاب؛ "لأن الطرد من رحمة الله لا يرجى بعده أي خير، بخلاف التعذيب بالنار وغيره؛ ألا ترى أن الملك إذا تغيَّر على مملوك إن كان تأذيه غير قوي يزجره ولا يطرده. ولو خُيِّر المجرم بين أن يُضرب أو يُطرد عند ما يكون الملك في غاية العظمة والكرم لاختار الضرب على الطرد، ولا سيما إذا لم يكن في الدنيا ملك غير سيده"[٢]، ولله المثل الأعلى.

ولشدة جرمهم أبعدهم الله تعالى وطردهم من رحمته طردا لا يُرجى معه قرب أو رحمة؛ **حيث قال تعالى:** ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

وذلك في الآخرة ظاهر، وأما في الدنيا فبأن يُحِلَّ الله تعالى عليهم سخطه وغضبه، ويتركهم في غيهم وضلالهم، حتى يستمرؤوا الغواية والضلال، فيبوؤوا بالخسران المبين، والله أعلم.

"لعنهم الله في الدنيا والآخرة لتشملهم اللعنة فيهما، بحيث لا يبقى وقت من أوقات محياهم ومماتهم إلا واللعنة واقعة عليهم ومصاحبة لهم فيه"[٣]. لشدة غضبه تعالى عليهم.

وتظهر شدة هذا العقاب في "أن المبعد في الدنيا يرجو القربة في الآخرة، فإذا طُرِدَ وأُبْعد في الآخرة أيضا فقد خاب وخسر خسرانا مبينا!!؛ لأن الله إذا أبعده وطرده فمن الذي يقربه يوم القيامة؟!!"[٤]. نعوذ بالله تعالى من ذلك.

وكان عقاب الله لهم بالطرد والإبعاد من رحمته في الدنيا والآخرة كافيا من حيث الظاهر في الدلالة على شدة عقابه تعالى لهم، وعلى تمام خيبتهم وخسرانهم، لكن لما كانت جرائمهم مما يستحق الإذلال والفضيحة والتحقير على الملأ يوم القيامة؛ توعدهم الله عز وجل بالعذاب المذل المخزي؛ **فقال تعالى:** ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾.

(١) المفردات في غريب القرآن: ص٧٤١.
(٢) التفسير الكبير: ٢٥/ ١٨٢. بتصرف.
(٣) فتح القدير: ٤/ ٣٤٨. بتصرف.
(٤) التفسير الكبير: ٢٥/ ١٨٢. بتصرف.

أي: وإضافة إلى طردهم وإبعادهم من رحمة الله سبحانه في الدنيا والآخرة، فقد هيأ الله تعالى لهم خاصة في الآخرة عذابا مهينا، وهو عذاب الذلة والخزي والتحقير؛ على رؤوس الأشهاد؛ ليجتمع عليهم عذاب الجسد وعذاب النفس.

والتعبير بالماضي وبالإعداد (أعدَّ) خاصة، فيه تأكيد -كما سبق بيانه- على أن هذا العذاب مخصوص بعذاب الآخرة، وأنه قد هيئ لهم فعلا، وأنهم صائرون إليه لا محالة.

*****

الموضع الحادي عشر

الاستهانة بآيات الله، والاستكبار على الإيمان بها

يقول الله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ ﴾ [الجاثية: ٧ – ٩].

التفسير والبيان:

بعد أن افتتح الله تعالى هذه السورة الكريمة بالثناء على كتابه الكريم، وبيَّن أنه تنزيل من الله العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، وذكر بعض آياته الدالة على وحدانيته وكمال قدرته؛ في الآفاق وفي الأنفس، وبيَّن أنها آيات لا ينتفع بها إلا المؤمنون الموقنون العاقلون –أتبع ذلك بذكر أولئك المكذبين الذين تعاموا عن تلك الآيات الظاهرة، والحجج الدامغة، فنعي عليهم، وتوعدهم وعيدا شديدا فقال سبحانه: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ ﴾ [الجاثية: ٧ – ٩].

وكلمة (ويل): تقال عند الهلكة، وهي أيضا: اسم لواد في جهنم(١)، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(الْوَيْلُ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَهْوِي فِيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ، وَالصَّعُودُ جَبَلٌ فِي النَّارِ فَيَتَصَعَّدُ فِيهِ سَبْعِينَ خَرِيفًا، ثُمَّ يَهْوِي وَهُوَ كَذَلِكَ)**(٢). وبه فسره الطبري(٣).

والأفاك: القوي الإفك، أي: الكذب، والأثيم: المبالغ في اقتراف الآثام، أي الخطايا، وكلاهما بناء مبالغة(٤).

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة: ص٤١، ، ومعاني القرآن للفراء: ٣/ ٢٤٥، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١/ ١٦٠، وغريب القرآن للسجستاني: ص: ٤٧٨، والمحرر الوجيز: ٥/ ٨١، والمفردات في غريب القرآن: ص٨٨٨.

(٢) الحديث: أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المدثر: ٢/ ٥٥١، ح(٣٨٧٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) جامع البيان للطبري: ٢٢/ ٦٣.

(٤) التبيان في تفسير غريب القرآن لابن الهائم: ص٢٩٣، والكشاف: ٤/ ٢٨٦، والتفسير الكبير: ٢٧/ ٦٧٢، والبحر المحيط: ٩/ ٤١٦، والتحرير والتنوير: ٢٥/ ٣٣١.

والمراد به: الكافر الجاحد المستكبر على الإيمان بالله تعالى، المستهين بكتابه العظيم، المستهزئ به، على ما ستبينه الآيات الكريمة.

توعده الله عز وجل وعيدا شديدا، وافتتحه تعالى بذكر الويل له تعجيلا لإنذاره وتهديده، قبل تفصيل جناياته، وبيان شديد عقابه.

والآيات عامة في كل من كان موصوفا بالصفات المذكورة(١).

وقد دلت الآيات على أسباب استحقاقه هذا العذاب المهين، وبيانه:

أولا: أنه أصرَّ على كفره بآيات الله مع سماعه لها وتلاوتها عليه؛ استهانة بها:

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ﴾ [الجاثية: ٨].

وحذف متعلق (يُصِرُّ) لدلالة المقام عليه، أي: يُصِرُّ على كفره، كما دل على ذلك قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [الجاثية: ٦](٢).

أي: يسمع آيات القرآن الكريم تُقرأ عليه، ثم يقيم على كفره وضلاله إقامة قوية شديدة، لا ينفك عنها بحال!!. والإصرار: ملازمة الشيء وعدم الانفكاك عنه؛ من الصَّرِّ، أي: الشد، ومنه صُرَّة الدراهم(٣). وأصل الإصرار: من إصرار الحمار على الأتان، وهو أن ينحى عليها صارّا أذنيه(٤).

و(ثم) للتراخي الرتبي، للدلالة على أن إصرارهم على الكفر واستكبارهم عن الإيمان كان مع سماعهم آيات الله الواضحة الناطقة بالحق تتلى عليهم!!، وأن هذا أمر عجيب مستبعد في العقول؛ إذ من حق آيات الله إذا سُمِعت أن تُذعِن لها القلوب وأن تخضع لها الرقاب، لما فيها من الهداية والبيان!!!(٥).

---

(١) يراجع: الكشاف: ٤/ ٢٨٦، والمحرر الوجيز: ٥/ ٨١، والتفسير الكبير: ٢٧/ ٦٧٢، ومدارك التنزيل: ٣/ ٢٩٩، والبحر المحيط: ٩/ ٤١٥، وإرشاد العقل السليم: ٨/ ٦٩، وغيرها.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٥/ ٢٣٢.

(٣) مقاييس اللغة: ٣/ ٢٨٢، الكشاف: ٤/ ٢٨٥، والمفردات في غريب القرآن: ص٤٨١، والتحرير والتنوير: ٢٥/ ٢٣٢.

(٤) أساس البلاغة: ١/ ٥٤٤، والكشاف: ٤/ ٢٨٥، وروح المعاني: ١٣/ ١٤١، والتحرير والتنوير: ٢٥/ ٢٣٢.

(٥) مستفاد من: الكشاف: ٤/ ٢٨٦، والجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ١٥٨، وأنوار التنزيل: ٥/ ١٠٦ ومدارك التنزيل: ٣/ ٢٩٩، والتحرير والتنوير: ٢٥/ ٣٣٢..

ومنه قول الشاعر[1]:

... . *** يرى غمرات الموت ثمّ يزورها

وذلك أنّ غمرات الموت حقيقة بأن ينجو رائيها بنفسه، ويطلب الفرار عنها، وأمّا زيارتها والإقدام على مزاولتها فأمر مستبعد، فمعنى (ثم) في هذا البيت: الإيذان بأن فعل المُقْدِم عليها بعد ما رآها وعاينها شيء مستبعد في العادات والطباع[2].

وفي ذكر إصراره على الكفر بعد تمام سماعه الآيات: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وتلاوتها عليه: ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾، وما يتضمنه ذلك من دعوته إلى الإيمان بها وبيان ثوابه، وتحذيره من الكفر بها وبيان عقابه؛ دلالة على أن كفره كان مقرونا بالجحود والاستهانة؛ لأنه يصر على كفره بالآيات بعد العلم بها.

وفي التعبير بالمضارع: (يسمع)، و(تتلى) و(يصر) دلالة على أن إصراره على الكفر كان متجددا كلما سمع آيات الله تتلي عليه، ولاستحضار تلك الصورة العجيبة لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر على كفره .... الخ.

ثانيا: أنه استكبر على الإيمان بآيات الله تعالى؛ استهانة بها أيضا:

يدل عليه قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية: ٨].

أي: يصر على كفره مستكبرا على ربه أن يذعن لأمره ونهيه، أو مستكبرا على آيات الله أن يؤمن بها، مزدريا لها، مستهينا بها، كأنه لم يسمعها أصلا[3].

وقد دل قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ على شدة استكباره على الإيمان بالقرآن الكريم واستهانته به؛ إذ كان يكفي في الدلالة على استكباره أن يقال في غير القرآن: (مستكبرا)، لكن لما كان استكباره شديدا مشوبا بالاستهانة بولغ فيه بقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾، فشُبهت حاله في استكباره على الإيمان بآيات الله بحال من لم يعلم بها أصلا، مع أنه سمعها، وتليت عليه!!!.

(١) البيت لجعفر بن علبة الحارثي، وصدره: (ولا يكشف الغماء إلا ابن حرة). يراجع: شرح ديوان الحماسة للتبريزي: ١/ ١٠.
(٢) الكشاف ٤/ ٢٨٦.
(٣) الكشاف: ٤/ ٢٨٦، ومدارك التنزيل: ٣/ ٢٩٩، وإرشاد العقل السليم: ٨/ ٦٩. بتصرف، وزيادة.

فتوعده الله تعالى بالعذاب الأليم في الآخرة، متهكما به قائلا عز من قائل: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾ [الجاثية: ٨]. أي: فأنذره على إصراره على الكفر واستكباره على آيات الله واستهانته بها بعذاب شديد الألم، في جهنم وبئس المصير.

ثالثا: أنه سخر من آيات الله تعالى واستهزأ بها:

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ [الجاثية: ٩].

وهذه جناية أخرى أكبر من جناياته السابقة، تضاف إلى سجل جرائمه؛ وهي سخريته من آيات الله واستهزاؤه بها، والعياذ بالله تعالى.

وفي التعبير بأسلوب الشرط دلالة على سرعة استهزاء هذا المجرم بآيات الله تعالى أول علمه بها، وسماعه إياها، والعياذ بالله تعالى.

وعبر بقوله سبحانه ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾، دون: (اتخذه) "للإشعار بأن هذا الأفاك الأثيم إذا بلغه شيء من القرآن خاض في الاستهزاء بجميع الآيات، ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه"!!![1]، مما يدل على شدة كفره وفجوره.

كما أن التعبير بالاتخاذ دون (الأخذ) والذي يحمل معنى التعمل وبذل الجهد في سبيل تحقيق ذلك، دلالة قوية على تعمده وإصراره اتخاذ آيات الله تعالى هزوا.

وجاء التعبير بقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾، دون (استهزأ بها) ليدل بلفظ (الاتخاذ) على الجعل[2]، أي: أن هذا المجرم إذا بلغه من آيات الله شيء جعلها -كلها- مادة للسخرية والاستهزاء المستمر، لا أنه يستهزئ مرة ثم ينتهي عن ذلك!!!.

** ولما كانت هذه أحوالهم وتلك فعالهم، وكانت جميها دالة على إصرارهم على الكفر، وعلى استكبارهم على آيات الله، واستهانتهم بها، وسخريتهم منها؛ -

(١) الكشاف ٤/ ٢٨٦. بتصرف وزيادة.

(٢) يأتي الاتخاذ بمعنى الجعل، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ۝٥٦﴾ [الكهف: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المجادلة: ١٦]. يراجع: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي: ص١٦٠، وبصائر ذوي التمييز: ٢/ ٥٨.

عاقبهم الله تعالى بالإذلال والخزي والفضيحة يوم القيامة؛ جزاء وفاقا؛ فقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ ﴾ [الجاثية: ٩].

و(أُولئِكَ) إشارة إلى كل أفاك أثيم، والجمع باعتبار الشمول للكل، (لهم) بسبب جناياتهم المذكورة، عذاب مذل مخز فاضح لهم على رؤوس الأشهاد.

جعل الله تعالى عذابهم مهينا جزاء استكبارهم واستهزائهم واستهانتهم بآيات الله سبحانه وتعالى. ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

****

الموضع الثاني عشر

معاداة الله تعالي ورسوله صلى الله عليه وسلم

جحودا واستكبارا

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ ﴾ [المجادلة: ٥].

التفسير والبيان:

لما بين الله تعالى في الآيات السابقة أحكام الظهار، وذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده عز وجل، أعقبهم بذكر المخالفين المعادين لشرعه المُحادِّين لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء هم المنافقون واليهود، وتوعدهم بالعذاب المهين في الآخرة.

وقد دلت الآيات على أسباب استحقاقهم هذا العذاب المهين، وبيانه:

أولا: أنهم عادوا الله ورسوله وخالفوهما؛ بكفرهم واستكبارهم وجحودهم.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾:

والمحادة: المعاداة، والمخالفة[١]، وقيل أصلها: أن تكون في حد يخالف الحد الذي فيه أولياء الله، وهو حد أعداء الله[٢].

وقيل: أصل المحادة: الممانعة[٣]؛ قال المبرد: أصل المحادة: الممانعة، ومنه يقال للبواب –الذي يمنع الداخلين إلا بإذن–: حَدَّاد، وللممنوع الرزق: محدود[٤]، قال أبو مسلم الأصفهاني: المحادة مفاعلة من لفظ الحديد، والمراد المقابلة بالحديد، سواء كان ذلك في الحقيقة، أو كان ذلك منازعة شديدة شبيهة بالخصومة بالحديد[٥].

فالمحادة تحمل معنى الممانعة والمخالفة والمعاداة والمنازعة، وتلك صفات لا تكون إلا من المستكبرين الجاحدين، والمعنى: إن الذين يعادون الله ورسوله، ويخالفونهما، ويمانعونهما كبتوا كما كبت الذين من قبلهم.

---

(١) غريب القرآن للسجستاني: ص١٩٧.
(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ١٣٦.
(٣) غريب القرآن للسجستاني: ص١٩٧. والمفردات للراغب: ص٢٢٢.
(٤) التفسير البسيط للواحدي: ٢١/ ٣٤٠.
(٥) التفسير الكبير للرازي: ٢٩/ ٤٨٨.

"وفي ذكر لفظ المحادة في أثناء الحديث عن حدود الله تعالى[١] ، دون لفظي: "المعاداة"، و"المشاقة"؛ من حسن الموقع مالا غاية وراءه"[٢].

وهؤلاء هم المنافقون واليهود[٣]، وهم الذين كرر الله عز وجل وعيدهم بالإذلال في أواخر السورة حيث قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة: ٢٠ – ٢١].

وسياق الآيات يفسر تلك المحادة لله ورسوله:

أما المنافقون: فقد كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم، وآذوا أصحابه حين تناجوا بالإثم والعدوان بمرأى منهم بعد نهيهم عن ذلك؛ ليغيظوهم ويحزنوهم؛ فجورا منهم وعنادا وكيدا، وعصيانا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وحيث تحدُّوا الله تعالى ونازعوه في ملكه؛ أن يعذبهم بما أخفوه في أنفسهم من الإساءة لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، وهذا غرور واستكبار وإنكار منهم لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وحيث والوا اليهود ضد المؤمنين، وحلفوا على الكذب للتنصل من كل ما فعلوه ....، وأما اليهود: فقد كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم، وأرادوا إهانته صلى الله عليه وسلم حين حيّوه بالدعاء عليه بالموت، إلى آخر ضلالاتهم التي قصدوا بها معاداة الله ورسوله.

وقوله تعالى: ﴿كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾:

شروع في بيان عقابهم على تلك المحادة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

والكبت: الإذلال والخزي[٤]، قال المبرد: يقال: كبت الله فلانا إذا أذله، والمردود بالذل يقال له: مكبوت[٥]. والمعنى: أُذلوا، وأُخزوا، وخُذلوا، ولُعنوا، وغِيظوا[٦].

---

(١) حيث قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ ﴾ [المجادلة: ٤، ٥].

(٢) إرشاد العقل السليم: ٨/ ٢١٨. بتصرف.

(٣) ذكر المفسرون عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية والآيات التي بعدها نزلت في اليهود والمنافقين النكت والعيون: ٥/ ٤٩٠، ومعالم التنزيل: ٥/ ٤٢، المحرر الوجيز: ٥/ ٢٧٦، وأسباب النزول للواحدي: ص٤١٠.

(٤) مقاييس اللغة: ٥/ ١٥٢، ولسان العرب: ٢/ ٧٦، وتاج العروس: ٥/ ٥٢، ٥٣، مادة (كبت).

(٥) التفسير البسيط للواحدي: ٢١/ ٣٤٠، والتفسير الكبير للرازي: ٢٩/ ٤٨٨.

(٦) يراجع: مقاييس اللغة: ٥/ ١٥٢، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٥/ ١٣٦، ولسان العرب: ٢/ ٧٦، مادة (كبت)، وجامع البيان للطبري: ٢٣/ ٢٣٥، والكشاف =

وذلك يحتمل أن يكون عقابا في الدنيا قبل الآخرة، يدل عليه قوله تعالى: ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وعليه: فإن الآية بشارة من الله تعالى للمؤمنين بالنصر على الكافرين، وأخرج الكلام بلفظ الماضي تقريبا للمخبَر عنه، ودلالة على التحقق والثبوت. والمعنى: أُذلوا وأُخزوا وأهينوا كما أُذل وأُخزي وأُهين المعاندون ممن كانوا قبلهم من كفار الأمم السابقة.

ويحتمل أن يراد به عقاب الآخرة: والمعنى: (سيكبتون)؛ عُبِّر بالماضي (كُبتوا) عن الحال والاستقبال، على طريقة قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١][1].

وقد جاء وعيدهم بتلك الذلة مصرحا به في آخر السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة: ٢٠].

ثانيا: أنهم حادُّوا الله ورسوله مع قيام الحجج والبينات!!، وهذا مما يضاعف جحودهم واستكبارهم.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾:

والآيات البينات: هي الدلائل الواضحات، وذلك يتناول القرآن الكريم، وآيات الله في النفس وفي الآفاق. والمعنى: والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات تدل على دين الله تعالى، وعلى صدق رسولنا صلى الله عليه وسلم وصحة ما جاء به، لا يخالفها إلا كل كافر جاحد مستكبر[2].

ولما كان كفرهم قائما على الجحود والاستكبار -كما رأينا- كان جزاؤهم من جنس عملهم؛ عذابا مذلا مخزيا لهم؛ جزاء وفاقا؛ يقول تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾. أي: وللمعادين لشرع الله تعالى ورسوله، الجاحدين المستكبرين عن الإيمان، خصوصا بعد وضوح الآيات والحجج عذاب في الآخرة مذلٌّ مخزٍ، يهينهم فيذهب بعزهم وتكبرهم، ويلبسهم الهوان والصغار؛ كما استكبروا عن الإيمان بالله ورسوله.

=للزمخشري: ٤/ ٤٨٩، ومعالم التنزيل للبغوي: ٥/ ٤٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٧/ ٢٨٨، ٢٨٩، وغيرها.

(١) مستفاد من: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٧/ ٢٨٨، ٢٨٩إرشاد العقل السليم: ٨/ ٢١٧.

(٢) يراجع: جامع البيان: ٢٣/ ٢٣٥، والكشاف: ٤/ ٤٨٩، وإرشاد العقل السليم: ٨/ ٢١٨.

ووضع الظاهر (الكافرين) موضع المضمر للحكم عليهم بالكفر، وللتشنيع عليهم به. هذا على أن اللام للعهد، وإن قلنا هي للجنس: دخل أولئك الجاحدون المستكبرون (المنافقون واليهود) فيهم دخولا أوليا(١).

وكان قوله تعالى: ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كافيا في الدلالة على خزيهم وإذلالهم في الدنيا والآخرة، لكن الله تعالى أكد إهانتهم وإذلالهم في الآخرة بقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾؛ لفداحة جرمهم ولبشاعة ما جنوا من الاستكبار عن الإيمان مع وضوح الآيات، ومحاولتهم إهانة الدين وأهله!!، فوصمهم الله تعالى بالكفر، وتوعدهم بالإذلال والصغار في الآخرة؛ زيادة في التخويف والترهيب.

** وقد وصف الله تعالى العذاب في آية الباب بالإهانة؛ حيث قال تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾ [المجادلة: ٥]. ووصفه في الآية السابقة عليها بالإيلام، حيث قال تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ [المجادلة: ٤]، وظاهر اللفظ أن المستحقين للعذاب هم هم، فما السر في ذلك؟

والجواب: أن سياق الآيات السابقة يرشح أن يكون الوصف بالكفر فيها مرادا به كفران النعم لا الكفر المخرج من الملة؛ حيث إنها تتناول أحكام الظهار وكفارته، وهذا خاص بالمؤمنين لا الكافرين الخارجين عن الملة؛ ولهذا قال الله تعالى فيه: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ٤].

وعليه يكون المراد بالكافرين هنا: المؤمنين الواقعين في الظهار، المخالفين لشرع الله في كفارته، ويكون المراد بكفرهم: الكفر بنعم الله عليهم؛ حيث جعل الله لهم فرجا ومخرجا مما وقعوا فيه، فلم يلتزموا؛ على حد قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧]، فسمى الله تعالى عدم شكره على نعمه كفرا، فمن ظَاهَر من امرأته ولم يلتزم بكفارة الظهار التي جعلها الله فرجا وجبرا، ويسر أمرها على هذا التدرج؛ فقد كفر بنعمة الله عليه، واستحق العذاب الأليم، وبهذا تظهر المناسبة بين وصف العذاب بالأليم وبين مضمون الآية وسياقها.

(١) مستفاد من: جامع البيان: ٢٣/ ٢٣٥، وتأويلات أهل السنة للماتريدي: ٩/ ٥٦٦، والكشاف: ٤/ ٤٨٩، والتفسير الكبير: ٢٩/ ٤٨٨، وفتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف): ١٥/ ٢٧٨، ٢٧٩.

وأما آية الباب: فإنها مستأنفة والموصوفون فيها بالكفر من المنافقين واليهود، الذين عادوا الله ورسوله وخالفوهما جحودا واستكبارا، وأرادوا إهانة الدين وأهله، فكان جزاؤهم الإذلال والخزي والفضيحة؛ جزاء كفرهم وعنادهم واستكبارهم وجحودهم[1]. والله أعلم.

****

(١) مستفاد من: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل لابن الزبير الغرناطي: (٢/ ٤٧٠.

الموضع الثالث عشر

موالاة أعداء الله؛ قصدا لإذلال الإسلام وأهله

يقول الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [المجادلة: ١٤- ١٦].

التفسير والبيان:

بعد أن بين الله تعالى في الآيات السابقة إحاطة علمه بكل شيء بيَّن سبحانه في هذه الآيات الكريمة اطلاعه على نفاق المنافقين، وكيدهم للإسلام وأهله؛ ففضحهم وشنع عليهم، وتوعدهم مرتين، مرة بالعذاب الشديد، ومرة بالعذاب المهين.

وقد دلت الآيات على أسباب استحقاقهم هذا العذاب المهين، وبيانه:

أولا: أنهم والوا أعداء الله تعالى؛ قصدا لإعزاز أنفسهم وإهانة الإسلام وأهله:

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾.

والخطاب فيه للرسول صلى الله عليه وسلم لعِظَم الأمر وفداحته، وهو لكل مكلف من الأمة من بعده صلى الله عليه وسلم.

والرؤية هنا عِلْمية، وحقها أن تتعدى لاثنين، لكنها ضُمِّنَتْ معنى ما يتعدى بـ (إلى)، والمعنى: "ألم ينته علمُك إلى كذا"، أو "ألم تنظر بعين قلبك إلى كذا"[(١)].

والاستفهام للتعجب من حال أولئك المنافقين، والتشنيع عليهم.

ودل على بُعدهم عن الخير بحرف الغاية فقال: ﴿ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا ﴾ أي: تكلفوا بغاية جهدهم أن جعلوا أولياءهم الذين ينزلون بهم أمورهم ﴿ قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾. ابتغوا عندهم العزة اغتراراً بما يظهر لهم منهم من القوة[(٢)].

(١) يراجع: جامع البيان: ٢٣/ ٢٥٢، وإعراب القرآن للنحاس: ٤/ ٢٥٣، والدر المصون: ٢/ ٥٠٥.

(٢) نظم الدرر: ١٩/ ٣٨٥.

والمعنى[1]: ألم تنظر بعين قلبك يا محمد صلى الله عليه وسلم، أو ألم ينته علمُك إلى القوم الذين تَولَّوْا قومًا غضب الله عليهم، وهم المنافقون تولَّوا اليهود وناصحوهم، ونقلوا إليهم أسرار المسلمين، إرادة إعزاز أنفسهم، بتكوين جبهة قوية مع اليهود، للقضاء على الإسلام وأهله.

وزاد الله تعالى في التشنيع عليهم والتعجيب من حالهم بقوله تعالى: ﴿**مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ**﴾: أي[2]: والحال أن هؤلاء الذين والاهم المنافقون ليسوا منكم أيها المؤمنون –وهم الذين يزعمون أنهم منكم في الظاهر–، وليسوا من المنافقين إخوانهم في النفاق، وإنما هم من اليهود!! [3].

وهكذا المنافقون دائما كما قال الله تعالى فيهم: ﴿**مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾**﴾ [النساء: ١٤٣] الآية. وقد قال صلى الله عليه وسلم فيهم أيضا: **(مَثَلُ الْمُنَافِقِ، كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً)**[4]. أي: المترددة[5]، لأنه مع المؤمنين بقوله ومع الكافرين بقلبه.

ولم يكن قصد المنافقين بتلك الموالاة لليهود إلا إضعاف المسلمين، والكيد لهم وإذلالهم؛ تمهيدا للقضاء على الإسلام وأهله؛ لأنهم ما جمعهم بمن والوهم نسب ولا ملة، وإنما جمعهم بهم اشتراك الفريقين في عداوة الإسلام وأهله، والحرص على القضاء عليه.

---

(١) مستفاد من: جامع البيان: ٢٣، وتأويلات أهل السنة: ٩/ ٥٧٥، والتفسير البسيط للواحدي: ٢١/ ٣٥٤، والكشاف: ٤/ ٤٩٥، والمحرر الوجيز: ٥/ ٢٨٠، والتفسير الكبير: ٢٩/ ٤٩٧، والبحر المحيط:١٠/ ١٢٩، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٨/ ٨١، وفتح القدير: ٥/ ٢٢٩، وغيرها من كتب التفسير.

(٢) مستفاد من المصادر السابقة: نفس المواضع، وغيرها من كتب التفسير.

(٣) اليهود مذكورون في كتاب الله تعالى بغضب الله عليهم في أكثر من موضع؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿**بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾**﴾ [البقرة: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾**﴾ [المائدة: ٦٠].

(٤) الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم: ٤/ ٢١٤٦، ح(٢٧٨٤) عن بن عمر رضي الله عنهما.

(٥) غريب الحديث لابن الجوزي: ٢/ ١٣٨.

ثانيا: أنهم بالغوا في تمويه جرائمهم بالحلف الكاذب؛ قصدا لإعزاز أنفسهم وإهانة الإسلام وأهله:

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المجادلة: ١٤، ١٥].

وهو معطوف على قوله تعالى: ﴿تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ داخل في حكم التشنيع عليهم، والتعجيب من أفعالهم.

وعبر بالمضارع (يَحْلِفُون) دلالة على إصرارهم على الحلف على الكذب، وعلى تجدد ذلك منهم.

و"دل بأداة الاستعلاء (على) على تمكن الكذب منهم، حيث كانوا في غاية الجرأة على استمرارهم على الأيمان الكاذبة؛ إذ التقدير: "مجترئين على الكذب" في دعوى الإسلام وغير ذلك مما يقعون فيه من عظائم الآثام، فإذا عوتبوا عليه بادروا إلى الأيمان الكاذبة(١).

والمراد من هذا الكذب: إما ادعاؤهم كونهم مسلمين، أي: ويقولون: والله إنا لمسلمون، فيحلفون على الكذب الذي هو ادعاء الإسلام، وإما أنهم كانوا يشتمون الله ورسوله ويكيدون للمسلمين، فإذا قيل لهم: إنكم فعلتم ذلك خافوا على أنفسهم من القتل، فيحلفون أنا ما قلنا ذلك وما فعلناه، فهذا هو الكذب الذي يحلفون عليه. وهم يعلمون أن المحلوف عليه كذب بحت(٢).

وقد ذكر القرآن الكريم حلفهم على الكذب في أكثر من آية، من ذلك قوله تعالى: قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة: ٥٦] ، وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التوبة: ٦٢] وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة: ٧٤].

(١) نظم الدرر: ١٩/ ٣٨٦. بتصرف.
(٢) الكشاف: ٤/ ٤٩٥، والتفسير الكبير: ٢٩/٤٩٧، وغيرهما من كتب التفسير.

ثالثا: أنهم كانوا يحلفون على الكذب مجترئين قاصدين القضاء على الإسلام وأهله:

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

والمعنى: "ويحلفون على الكذب، والحال أنهم يعلمون بطلان ما حلفوا عليه، وأنه كذب لا حقيقة له، كمن يحلف باليمين الغموس"(١). "فهي جملة في محل نصب على الحال"(٢).

والسر في ذكر هذا القيد ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ -مع أنهم يعلمون ما يفعلون ضرورة-: الدلالة على مدى تجرؤهم وتجاسرهم وتعمدهم الكيد للإسلام وأهله، فهم ما كانوا يصنعون ذلك لهوا أو عبثا أو محض كفر وجحود، وإنما فعلوه عامدين قاصدين القضاء على الإسلام وأهله.

ولما كانت فعالهم بهذا القدر من السوء والمكر والكيد والتجرؤ على دين الله توعدهم الله تعالى بالعذاب الشديد؛ **فقال عز من قائل:** ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المجادلة: ١٥].

أي: أعد الله لهم عذابا شديدا بسبب كيدهم للإسلام وأهله بموالاتهم أعداء الله تعالى، ومبالغتهم في تمويه ذلك بالحلف الكاذب، وتعمدهم ذلك إرادة القضاء على الإسلام وأهله.

وفي التعبير بـ (لهم) تهكم ظاهر بهم؛ إذ إنها تكون حقيقة في الثواب لا في العقاب.

و"جملة ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ تعليل لإعداد العذاب الشديد لهم، أي: إنهم عملوا فيما مضى أعمالا سيئة متطاولة متكررة كما يؤذن به المضارع من قوله: (يعملون)"(٣). كما يشير هذا المضارع أيضا إلى أنهم كانوا مصرين على تلك الفعال، وأنها كانت لهم كالجبلة.

(١) مستفاد من الكشاف: ٤/ ٤٩٥.
(٢) يراجع: الدر المصون: ١٠/ ٢٧٣، وفتح القدير: ٥/ ٢٢٩.
(٣) التحرير والتنوير: ٢٨/ ٤٩.

رابعا: أنهم بكيدهم للإسلام وتمويههم ذلك بالحلف الكاذب صدوا الناس عنه؛ قصدا لإعزاز أنفسهم بالقضاء على الإسلام وأهله:

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [المجادلة: ١٦].

والأَيْمان: جمع يمين، وهي ما كانوا يحلفون عليه من الكذب بأنهم من المسلمين، أو بأنهم ما كادوا للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

والجُنَّة: الوقاية والسترة، من جَنَّ، إذا استتر، أي: جعلوا هذه الأَيْمان وقاية وسترة دون دمائهم، كما يجعل المقاتل الجُنَّة وقاية له من أن يصاب بسيف أو رمح أو سهم(١).

وهذه الآية مستأنفة استئنافا بيانيا عن قوله تعالى: ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤﴾؛ كأن سائلا سأل فقال: ما ألجأهم إلى الحلف على الكذب، فأجيب: بأنهم فعلوا ذلك ليقوا أنفسهم من القتل بسبب كيدهم للإسلام وأهله. ويجوز أن تكون خبرا ثانيا لـ (إن) في قوله ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٥﴾ [المجادلة: ١٥] وتكون داخلة في التعليل(٢).

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: أنهم بالغوا في تمويه جرائمهم ضد الإسلام وأهله بالحلف الكاذب؛ عامدين قاصدين؛ فمنعوا بعض الناس من الدخول في الإسلام؛ بتثبيطهم، وإلصاقهم التهم الباطلة بالإسلام والمسلمين، وغير ذلك من جرائمهم وكيدهم للإسلام وأهله.

ولم يُذكر مفعول (صدوا) لبيان هول صنيعهم، وفداحة جرمهم، إذ في حذفه دلالة على عموم صدهم، وعدم انحصاره في معين، فهم يصدون كل من يتأتى منه الصد!!.

ولما كان قصد المنافقين من جرائمهم هذه إعزاز أنفسهم وإهانة الإسلام وأهله؛ حيث والوا أعداء الإسلام، وبالغوا في تمويه جرائمهم ضده بالحلف الكاذب، عالمين عامدين، ومنعوا بعض الناس من الدخول في الإسلام؛ لا جرم توعدهم الله تعالى في الآخرة بالعذاب المهين؛ فقال تعالى: ﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾،

(١) المفردات في غريب القرآن: ص٢٠٣، وفتح القدير: ٥/ ٢٢٩.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٨/ ٤٩. بتصرف وزيادة.

جزاء لأعمالهم في الدنيا، أي: فلهم عذاب يهينهم ويخزيهم ويفضحهم على رؤوس الأشهاد؛ جزاء وفاقا.

وفي التعبير بـ (لهم) تهكم ظاهر بهم؛ -كما سبق بيانه-؛ إذ إنها تكون حقيقة في الثواب لا في العقاب.

**** تتمة:**

ذكر بعض المفسرين أن العذاب المذكور في قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، تكرير للمذكور في قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ لأجل التأكيد، زيادة في الإنذار والوعيد، وأنهما عذاب واحد فيه الوصفان، الشدة والإهانة(١).

وذكر بعضهم: أنه لا وجه للقول بالتكرار، وأن العذاب الموصوف بالشدة غير العذاب الموصوف بالإهانة(٢).

قلت: العلم عند الله تعالى أي ذلك يكون، لكن الظاهر أنهما ليسا بمعنى واحد، فهما إما وصفين مختلفين جُمعا في عذاب واحد، وإما عذابين مختلفين اجتمعا عليهم، والظاهر أيضا أن المنافقين استحقوا ذلك القدر من العذاب لتعدد جرائمهم وفداحتها، والله تعالى أعلم.

****

(١) يراجع: التحرير والتنوير: ٢٨/ ٥٠.
(٢) يراجع: فتح القدير للشوكاني: ٥/ ٢٣٠.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، الذي بنعمته تتم الصالحات، وبنور هديه تتبدد الظلمات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رفيع الدرجات، وعلى آله وصحبه أنجم الهدايات، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين. **وبعـــــد،،**

فقد انتهيت بحمد الله تعالى وتوفيقه من هذا البحث: **(حديث القرآن الكريم عن العذاب المهين دراسة تفسيرية تحليلية)** وتوصلت إلى جملة من النتائج والتوصيات.

أما النتائج فمن أهمها:

أولا: بلغت مواضع ورود وصف العذاب بالمهين في القرآن الكريم ثلاثة عشر موضعا.

ثانيا: يمكن القول بأن العذاب المهين: عقاب أخروي نفسي توعد الله تعالى به أهل الكفر وأهل الشرك وأهل النفاق، يذل الله تعالى به نفوسهم، ويخزيها، ويحقرها، ويفضحها على رؤوس الأشهاد؛ جزاء وفاقا لأعمالهم في الدنيا؛ قال الله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النبأ: ٢٦].

ثالثا: أهل العذاب المهين هم: أهل الكفر وأهل الشرك وأهل النفاق، الذين تجاوزت جرائمهم مجرد الشرك أو الكفر أو النفاق، إلى: (الاستهانة، أو الاستكبار، أو الاستهزاء، أو الإعراض، أو الصد، أو المحاربة) سواء تعلق ذلك بالله عز وجل، أو بكتابه الكريم، أو برسله عليهم الصلاة والسلام، أو بالدين كله، والعياذ بالله تعالى. فتوعدهم الله تعالى بالعقاب من جنس أعمالهم؛ ذلا، وخزيا، واحتقارا، وفضيحة على رؤوس الأشهاد.

رابعا: العذاب المهين من أقسى أنواع العذاب النفسي في الآخرة، ولهذا خصه الله تعالى بأولئك الذين عظمت جرائمهم وتعددت؛ وتجاوزت مجرد الكفر أو الشرك أو النفاق.

خامسا: العذاب المهين مخصوص بأولئك الكفار أو المشركين أو المنافقين، المخلَّدين في جهنم، والعياذ بالله تعالى، وليس للعصاة من المؤمنين، كأهل الكبائر؛ وعذابهم في جهنم يكون تمحيصا لهم من آثامهم، ولا خلود فيه،

ولا إذلال، ولا خزي، ولا فضيحة، ثم يُدخلهم الله تعالى الجنة بفضله، ويُخلدهم في نعيمها.

وهذا من رحمة الله تعالى بهم وفضله عليهم، إكراما لأصل إيمانهم الذي ماتوا عليه، وإن أبطأت بهم أعمالهم، وضعف إيمانهم، واقترفوا كبائر الذنوب.

خامسا: ورد الوعيد بالعذاب المهين مع غيره من أنواع العذاب لنفس المتوعدين، في بعض المواضع: كما ما ورد في موضع سورة آل عمران، وهو الموضع الثاني، حيث جمع الله تعالى على المتوعدين فيه صنفين من العذاب مع العذاب المهين، هما: العذاب العظيم، والعذاب الأليم. وما ورد في موضع سورة المجادلة، وهو الموضع الثالث عشر؛ حيث جمع الله تعالى على المتوعدين فيه مع العذاب المهين صنفا آخر، هو: العذاب الشديد.

وقد تكون هذه صنوفا من العذاب، وقد تكون أوصافا لعذاب واحد، والعلم عند الله تعالى وحده، لكن الظاهر أنها ليست بمعنى واحد، وأن أولئك القوم قد استحقوها جميعا؛ لتعدد جرائمهم، وفداحتها وخطرها، جزاء وفاقا.

فاللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومِن فتنة المحيا والممات، ومِن شر فتنة المسيح الدجال.

<u>وأما التوصيات:</u>

١- أوصي بعمل دراسة كبرى (ماجستير أو دكتوراه) في موضوع: النعيم النفسي للمؤمنين في الجنة في ضوء القرآن الكريم.

٢- أوصي بمتابعة الكتابة التفسيرية التحليلية في بقية مواضع أوصاف العذاب في القرآن الكريم.

والله تعالى أسأل أن ينفعني بهذا العمل، وأن ينفع به كل من يقرؤه، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، والحمد لله في الأولى والآخرة. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. والله تعالى أعلم.

د/ ربيع يوسف شحاته الجهمي
الأستاذ المساعد في التفسير وعلوم القرآن الكريم
في جامعة الأزهر، المشارك في جامعة تبوك بالسعودية

ثبت المصادر والمراجع

أولا: **القرآن الكريم** .... **تبارك الذي نزله**

ثانيا: **كتب التفسير وعلوم القرآن**:

١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: للإمام أبي السعود، ط/ دار إحياء التراث العربي– بيروت – بدون تاريخ.

٢) أسباب نزول القرآن للواحدي، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، الثانية، ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢م.

٣) إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش، ط/ دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص، سورية، الرابعة، ١٤١٥هـ.

٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨هـ.

٥) البحر المحيط في التفسير: للإمام أبي حيان، صدقي جميل، ط/ دار الفكر – بيروت – الأولى ١٤٢٠هـ.

٦) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لأبي العباس أحمد بن عجيبة، ت: أحمد عبد الله القرشي رسلان، نشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، ١٤١٩ هـ.

٧) البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان للكرماني، المحقق: عبد القادر أحمد عطا، دار النشر: دار الفضيلة.

٨) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: لمجد الدين الفيروز أبادي، تحقيق: محمد علي النجار. ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الثالثة ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

٩) التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري، المحقق : علي محمد البجاوي، الناشر : عيسى البابي الحلبي وشركاه.

١٠) التبيان في تفسير غريب القرآن لابن الهائم، ت: د ضاحي عبد الباقي محمد، ط/ دار الغرب الإسلامي – بيروت، الأولى – ١٤٢٣هـ.

١١) تحبير التيسير في القراءات العشر لابن الجزري، تحقيق: د. أحمد محمد مفلح القضاة، ط، دار الفرقان – الأردن، عمان، الأولى، ٢٠٠٠م.

١٢) التحرير والتنوير: للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط/ الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١٣) التسهيل لعلوم التنزيل: لأبي القاسم ابن جزيء الكلبي تحقيق: د/ عبد الله الخالدي، ط/ شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الأولى، ١٤١٦ هـ.
١٤) التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه، ليحيى بن سلام، تحقيق: هند شلبي، ط/ الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٩م.
١٥) التفسير البسيط للإمام الواحدي، ط/ عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ
١٦) تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، لأبي الليث السمرقندي تحقيق الشيخ علي معوض، وعادل عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
١٧) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين، ت: أبو عبد الله حسين بن عكاشة – محمد بن مصطفى الكنز، الناشر: الفاروق الحديثة – مصر/ القاهرة، الأولى، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.
١٨) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة – ١٤١٩هـ.
١٩) تفسير القرآن العظيم: للحافظ ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط/ دار طيبة للنشر والتوزيع، الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.
٢٠) تفسير القرآن للإمام السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.
٢١) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي – القاهرة، بدون تاريخ.
٢٢) التفسير الكبير: للإمام الرازي، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، الثالثة ١٤٢٠هـ.
٢٣) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) للإمام الماتريدي المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان
٢٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للإمام الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
٢٥) الجامع لأحكام القرآن: للإمام القرطبى، تحقيق: أحمد البردوني، ط/ دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٤هـ ، ١٩٦٤م.
٢٦) حاشية الطيبي على الكشاف (فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب)، تحقيق: إياد محمد الغوج، ط/ جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الأولى ٢٠١٣م.
٢٧) حجة القراءات لابن زنجلة، ت: سعيد الأفغاني، الناشر: دار الرسالة.

٢٨) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: للسمين الحلبي، تحقيق د/ أحمد محمد الخراط، ط/ دار القلم، دمشق.
٢٩) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لأبي الفضل شهاب الآلوسي البغدادي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، ١٤١٥هـ.
٣٠) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢هـ..
٣١) السبعة في القراءات لابن مجاهد، تحقيق: د/ شوقي ضيف، ط/ دار المعارف بمصر، ١٤٠٠هـ.
٣٢) غريب القرآن لابن قتيبة، ت: أحمد صقر، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.
٣٣) غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، للسجستاني، ت: محمد أديب عبد الواحد جمران، الناشر: دار قتيبة – سوريا، الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.
٣٤) الغريبين في القرآن والحديث لأبي عبيد لهروي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، ط/ مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية، الأولى ١٤١٩هـ.
٣٥) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: للإمام الشوكاني، ط/ دار ابن كثير، بيروت، الأولى، ١٤١٤هـ.
٣٦) الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد للمنتجب الهمداني، تحقيق: محمد نظام الدين الفتيح، ط: دار الزمان للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٦م.
٣٧) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: للإمام الزمخشري، ط/ دار الكتاب العربي – بيروت، الثالثة – ١٤٠٧هـ.
٣٨) لباب التأويل في معاني التنزيل: للإمام الخازن، تصحيح: محمد علي شاهين، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى – ١٤١٥هـ.
٣٩) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: للإمام ابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، ط/ دار الكتب العلمية، لبنان، الأولى، ١٤٢٢هـ.
٤٠) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام النسفي، ت: يوسف علي بديوي، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الأولى، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
٤١) مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الثانية، ١٤٠٥هـ.

٤٢) معالم التنزيل للبغوي تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى ، ١٤٢٠هـ.
٤٣) معاني القرآن لأبي جعفر النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، ط/ جامعة أم القرى – مكة المكرمة، الأولى، ١٤٠٩هـ.
٤٤) معاني القرآن وإعرابه: للإمام أبي إسحاق الزجاج تحقيق: د/ عبد الجليل عبده شلبي، ط/ عالم الكتب، بيروت، الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.
٤٥) معاني القرآن: للإمام أبي زكريا الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وآخرين، ط/ الدار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، الأولى.
٤٦) المفردات في غريب القرآن: للإمام الراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط/ دار القلم، بيروت، ١٤١٢هـ.
٤٧) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، للغرناطي، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
٤٨) النشر في القراءات العشر لابن الجزري، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، تصوير دار الكتاب العلمية، بدون تاريخ.
٤٩) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، ط/ دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
٥٠) النكت والعيون: للإمام أبي الحسن الماوردي، تحقيق: السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
٥١) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية، ط/ جامعة الشارقة، ٢٠٠٨م.
٥٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد: لأبي الحسن الواحدي ت: عادل عبد الموجود، وآخرين، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

ثالثا: كتب الحديث الشريف وغريبه:

٥٣) سنن الترمذي للإمام أبي عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.
٥٤) صحيح البخاري: للإمام البخاري، تحقيق: د/ محمد زهير بن ناصر الناصر، ط/ دار طوق النجاة، الأولى، ١٤٢٢هـ.

٥٥) صحيح مسلم: للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.
٥٦) المستدرك على الصحيحين للإمام أبي عبد الله الحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.
٥٧) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط/ مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١م.
٥٨) الأدب المفرد للإمام البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط/ دار البشائر الإسلامية – بيروت، الثالثة، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.
٥٩) سنن أبي داود، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط – محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩م.
٦٠) السيرة النبوية لابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواح، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٩٧٦م.
٦١) غريب الحديث لابن الجوزي، تحقيق: د/ عبد المعطي قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان، الأولى، ١٩٨٥م.

رابعا: **اللغة والمعاجم والوجوه والنظائر**:

٦٢) أساس البلاغة للإمام الزمخشري، ت: محمد باسل عيون السود، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
٦٣) تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، ط/ دار الهداية.
٦٤) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للإمام الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط: دار العلم للملايين، بيروت، الرابعة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٦٥) لسان العرب، للإمام محمد بن بن منظور الأفريقي المصري، ط/ دار صادر، بيروت، ط/١، بدون تاريخ.
٦٦) معجم مقاييس اللغة: لابن فارس تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط/ دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
٦٧) تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، الأولى، ٢٠٠١م.
٦٨) شرح ديوان الحماسة للتبريزي، ط/ دار القلم – بيروت، بدون تاريخ.

٦٩) الصورة المعكوسة في البيان العربي، دراسة بلاغية للدكتور ياسر عبد الحميد عرقوب، ص١٧٦٨، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط جامعة الأزهر، العدد (٣٨)، الجزء الثاني، ٢٠١٩م.
٧٠) معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ت: الشيخ بيت الله بيات، ط/ مؤسسة النشر الإسلامي، الأولى، ١٤١٢هـ.
٧١) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الكريم الراضي، الناشر: مؤسسة الرسالة، لبنان، الأولى،١٩٨٤م.
٧٢) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام للقصَّاب، تحقيق: علي بن غازي التويجري، ط/ دار القيم، بيروت، ٢٠٠٣م
٧٣) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، ومحمود محمد الطناحي، ط/ المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
٧٤) الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري، ت: محمد عثمان، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الأولى، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.

خامسا: **كتب العقيدة**:

٧٥) الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي، تحقيق: عبد الله محمد الخليلي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.
٧٦) التعرف لمذهب أهل التصوف للإمام كلاباذي، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، بدون تاريخ.
٧٧) شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م.
٧٨) لمع الأدلة للإمام الجويني، تحقيق: فوقية حسين محمود، الناشر: عالم الكتب – لبنان، ١٩٨٧م.
٧٩) معالم أصول الدين للإمام الرازي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: دار الكتاب العربي، لبنان، بدون تاريخ.

****